A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

MATTA AKRAWI COLLECTION

A.U.B. LIBRARY

320.54
U48hA
C.1

محاضرات

حول القومية العربية

للدكتور جبر ابراهيم

مطبعة النضال

دمشق ١٩٤٨

كلمة

بعد ان القيت المحاضرة الاولى وهى نظرات فى القومية العربية فى قاعة النادى العربى بدمشق ، طلب منى بعض الاخوان القوميين ان اطبع المحاضرة فى كراس صغير ليسهل عليهم الاطلاع عليها الا انى لم استطع تحقيق رغبتهم فى ذلك الوقت .

اما الآن فقد اصبح باستطاعتى جمع ما القيته فى عدة مناسبات فى دمشق سنة ١٩٤٧ بكراس واحد لا سيما وكل ذلك يحوم حول موضوع واحد وهو ملاحظات عن القومية العربية وبذلك أكون قد حققت رغبة الاخوان السابقة . فرهنا الى اضع هذا الكراس بين يدى القوميين من العرب ليطلعوا عليه مؤملا ان تحمل بعض اخوانى فى الفكرة والجهاد لان يصرفوا جهوداً اكثر فى العمل على تعزيز قوميتنا العربية وذلك بدراستها دراسة علمية واقعية ، لان الامة العربية بحاجة اليوم الى وضع قواعد كيانها الجديد على اسس علمية ثابتة واضحة .

جابر العمر

نظرات في القومية العربية

في هذا الظرف الدقيق الذي تمر به اكثر الاقطار العربية يحسن بالقوميين من العرب ان يمعنوا النظر في فكرتهم القومية ويضعوا لها الاسس العلمية التي تتطلبها القومية العربية والتي سارت عليها اكثر قوميات العالم .

اننا نعيش يا سادة في وسط عاصفة اجتماعية وسياسية واقتصادية وسوف تستمر هذه العاصفة الى وقت طويل كما يظهر لنا ، لذلك لسنا بحاجة وليس من المصلحة العامة ان نضل في هذه العاصفة وعلينا ان نسير على نفس الطريق الذي سارت عليه بعض القوميات الاوربية .

ففي وسط عاصفة نابليون(١) ضد الدولة البروسية بدأ الفلاسفة الالمان يفكرون ملياً في اسباب خسارة بروسيا والطرق العملية السريعة التي ستنقذ بروسيا الالمانية . فكرسوا جهودهم وجهادهم لهذا الهدف القومي وبدأ القوميون الالمان يتعاونون لانقاذ هذا القطر الالماني الذي اعتقدوا فيه انه سيحقق لهم الوحدة الالمانية .

رأينا العسكريين منهم يهرعون الى بروسية الشرقية حيث المحل الذي

فر اليه قيصر (٢) بروسية يضعون انفسهم تحت تصرفه لانشاء جيش بروسي على الطرق الحديثة .

كذلك نجد الفلاسفة والعلماء لم يكتفوا بما قاموا به من خدمات بل صرفوا جهوداً تفكيرية كبيرة للبحث عن سبب هذه الفاجعة وعن الطرق الثقافية والعلمية التي ستخلق الايمان القومي في النفوس لتكون حصناً منيعاً ضد امثال هذه المصائب .

فبينما نجد مثلا جيش نابليون ، وقسم منه من الشعب الالماني، يتجول في شوارع برلين يشرب كؤوس الخمر جذلا بالنصر نشاهد «فيشته»(٣) الفيلسوف الكبير والمربي الالماني يلقي خطاباته القومية في برلين على مسمع من الجنود المنتصرين .

كذلك نجد العالم الالماني «يان» (٤) يرجع من عند قيصر بروسيا ويؤسس ملاعب الرياضة للاحداث ليخرج للجيش البروسي في وقت قصير جيلا من الشباب المدرب يستطيع ان يحافظ على شرف بروسيا وعزة المانيا . اذ ان التطوع في الجيش البروسي لايفيد بروسيا مالم يكن المتطوع قوياً على الكفاح مؤمناً بصحة هذا الكفاح .

واننا لنجد شبهاً ايضاً لهذا الامر في فرانسة . ففي وسط الثورة الافرنسية بدأ المفكرون الافرنسيون يضعون قواعد ثابتة للحالة الاجتماعية التي طغت في زمانهم. فنجد مثلا العالم الاجتماعي « كونت » (٥) واستاذه

ورفاقه يستفيدون من الرجة السياسية التي حصلت في فرانسة من قيام نابليون الى هبوطه وتبدل الحكم من ملكي الى جمهوري وبالعكس فيوجدون للعالم قواعد علمية لعلم (٦) ثابت استفادت منه فرانسة وافادت العالم به .

وكذلك نجد سويسرة الصغيرة تضع قواعدها الاجتماعية والسياسية في وسط عاصفة الثورة الافرنسية فتشاهد « بستالوتزي » (٧) يؤسس مدرسته المعهودة التي اصبحت مضرب الامثال وكعبة القاصدين من رجال التربية والتعليم ودعي لذلك بابي المدرسة الحديثة .

وقد كان منتظراً ان تستفيد بلادنا من هذه الحرب فتسرع في وضع الاسس القومية ، وتستفيد من تطورات الحرب لتحدث الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي تحتاجه بلادنا اكثر من غيرها الا انه لم يحدث ذلك وياللاسف فيجب اذن الا نتأخر كثيراً فحياة الشعوب لاسيما الشرق الادنى ستكون كلها عواصف وزوابع فلنعجل لنستفيد من هذه الزوابع فلها فائدتها كما فيها الخطر الجسيم .

وقبل البدء في بحث القومية ودعائمها أود ان أذكر لكم بعض المشاهدات التي شاهدتها في اوربا اثناء اقامتي فيها .

لقد ارسلت اواخر سنة ١٩٣٥ بعثة حكومية لدراسة التربية والتعليم في معاهد المانية وقد كان همي ملاحظة التربية القومية فيها لان برلين

كانت آنذاك قبلة انظار العالم بما امتازت به من نظام دقيق وقوة قومية جبارة .

وكانت الامة العربية تنظر الى برلين كمثل اعلى للقومية لذلك فيحسد كل من تتاح له الفرصة بزيارة برلين وكان حظي ان اسكن بجوار احد الشيوعيين الالمان . وقد حدثت بيننا صلة ود وتعارف .

اخذ صاحبي يحدثني كثيراً عن المانيا ومساوىء الحكم النازي فيها بصراحة واطمئنان لانني اجنبي ولا يخشى الوشاية عليه . وكذلك احدثه انا عن بلادي وكفاحها ضد الاستعمار .

وفي احد الايام اعلنت الصحف الالمانية ان الباخرة « المانية » قد اعتدي عليها من قبل الثوار الشيوعيين في اسبانية فاعطت الحكومة الالمانية امرها للباخرة بان تقابل الاعتداء بمثله والنار بالنار (وهذا طبع الماني) . ففعلت الباخرة واوقعت ضرراً كبيراً بالثوار الشيوعيين . زرت صاحبي لارى تأثير الخبر على نفسه لانه احدث رجة في كافة الاوساط الشعبية والسياسية ، واذا بصاحبي مقطب الوجه كئيب السحنة فتفاتحته الحديث وكان ظني انه متأثر من جراء خسائر الشيوعيين واخوانه في العقيدة والمبدأ ، واذا الامر على عكس ذلك ، اذ قال لي انني كضابط الماني لا استطيع ان اتحمل ان يعتدى على باخرة المانية تحمل علم الدولة الالمانية مهما كان نوعه او شكله من قبل اي فئة من الناس مهما كان شكلها

او عقائدها ، فعجبت لهذه القومية المتينة وقلت حقاً لقد أدى النشيد الالماني مفعوله في النفوس ، اذ صار كل فرد من هذه الامة يعتقد بان المانيا (٨) فوق الجميع . واصبحت المبادىء المكتسبة حديثاً لا تستطيع ان تتغلب على مفعول التربية المتينة التي بدأت مفعولها منذ الرضاعة . وشملت نواحي الحياة جميعها .

وحدث ايضاً ان التقيت مع بعض طلاب الجامعات الانكليزية عام ١٩٣٨ في جنوب المانيا وبدأ الحديث بيننا بصراحة لان المجتمعين كانوا من الاجانب . فتناول الحديث في الدرجة الاولى قضية فلسطين لانها كانت آنذاك من القضايا العالمية وتهمني كعربي كما تهم رفاقي الانكليز . وبدأت الهجوم على خطل السياسة البريطانية وفظائع الانكليز في فلسطين ولما اعيى اصحابي المنطق ورأوا ان الحقائق لاسيما التي نشرتها الصحف الالمانية لا تدحض قال احدهم بلهجة الهادىء الرصين : قد يكون صحيحاً ما تقول ولكن ثق ان الحكومة الانكليزية مهما كان لونها وطابعها لا تقوم باي عمل الا وفق مصلحة الامبراطورية الانكليزية ولذلك فلا بد لها من وجهة نظر خاصة لسنا بحاجة الى معرفتها .

عجبت لهذا الجواب واكبرت القومية الانكليزية وقلت لقد تحققت نبؤة « جون لوك »(٩) ومطالبته التربية الانكليزية ان توجد في الانكليز شعوراً بان مصلحة بلادهم هي المقياس للحق والباطل .

فكرت في ان اجد في جيلنا الحاضر ما يشابه هذا المثل او سابقه فلم تساعدني الذاكرة الا انها اعانتني بان اعادت الي قول خالد بن الوليد عندما عزل من قبل عمر بن الخطاب :

« انني لا احارب لا لابي بكر ولا لعمر ولكن لاعلاء كلمة الله ».

والآن لننظر قليلا الى نشأة القوميات في العالم الغربي ولنلاحظ الاسس التي بنيت عليها .

القومية هي فكرة سياسية نشأت في القرن التاسع عشر في اوربا منذ اخذت العلوم تشق طريقها الجديد في البحث والتنقيب وبدأ التحديد يأخذ مكانه في كافة الابحاث العلمية ، اذ احتلت القواعد الرياضية والتجارب الطبيعية المكان الاول الذي كانت تحتله الفلسفة والتفكير العقلي .

وفي هذا العصر بدأ علم الاجتماع يأخذ مكانه بين العلوم الطبيعية والرياضية ، فلم يكتف العلماء بسرد الحوادث التاريخية وملاحظة الطبائع والعادات البشرية بل جربوا ان يفسروا التاريخ وحوادثه المختلفة وفقاً للمقاييس العلمية التي سادت العصر ، وارادوا ان يعرفوا سير المستقبل وتطور الامم قياساً على المظاهر الاجتماعية كما يعرف الفلكي تطورات الجو من مراقبة حركة النجوم ودوران الارض وكما يتنبأ الرياضي معرفة النتيجة وفقاً لتسلسل المسألة الحسابية .

في وسط هذا الصراع العلمي وانتشار فكرة التحديد والمقياس

الدقيق نشأت الفكرة القومية في اوربا واحتلت مكاناً عالياً في نفوس العلماء والمفكرين فتناولوها بالبحث والتمحيص وقارنوها بالحركات الاخرى واظهروا تأثيرها على حياة الشعوب وسير السياسة. ولقد اختلف العلماء في تحديد عوامل القومية نسبة الى اختلاف الامم التي ينتمون اليها فكل عالم اجتماعي نظر اليها بمنظار امته ومصلحتها واتجاهاتها.

وقد اتفقوا على ان العوامل الآتية هي التي تقوم عليها القومية وتعطيها الطابع الخاص :

١ ــ الشعور العام بالانتماء الى اصل واحد حيث يشعر كل فرد من افراد الامة بانه ينتمي الى هذا العنصر ومع انه لا يشترط في كل شخص ان يستطيع ايصال نسبه الى الاجيال البعيدة بل ان الشعور بالانتماء الى العنصرية المعينة كاف لذلك. فمثلا اذا ما اعتز الالماني بفردريك وبسمارك والانكليزي بشكسبير وجون لوك والافرنسي بروسو وفولتير والعربي بعمر بن الخطاب وابي العلاء فلا يعني اكثر من الاعتزاز بالاجداد الغابرين والفخر بانه ينتسب الى نفس العنصر الذي ينتسب اليه هؤلاء الرجال.

والاهم بالنسبة للعنصر هو ليس اثبات الاصل وانما عدم وجود شك في ان الشخص ينتمي الى عنصر آخر اذ ليس المهم التأكد من الانحدار من العنصر بل المهم الاعتقاد بهذا الانحدار والاعتزاز بصفات العنصر وخصائصه.

٢ ــ اللغة ــ وهي اهم عامل في تكوين القومية والمظهر القوي الذي تمتاز به كل قومية عن الاخرى فهي علاوة على انها تربط الحاضر بالماضي بواسطة الآداب والشعر والمخلفات اللغوية فهي كذلك وسيلة للتفاهم وتكوين الانسجام في التفكير والشعور . لذلك تحرص كل قومية على الاعتناء بها واعطائها الطابع النيّ ولا يمكن للقومية ان تعيش ما لم تكن لها لغة خاصة بها .

ولهذا وجه القوميون همهم الاول الى احياء اللغة والاعتناء بها وسخروا المدرسة لذلك وحاربوا بذلك اللغات القديمة التي كانت طاغية على المدارس كما ان المستعمر يوجه اكبر مقاومة الى اللغة المحلية اذ بالقضاء عليها يقضي على اهم دعامة للقومية .

٣ ــ الاعتزاز بالمجد التاريخي ــ وقد تعتز بعض القوميات بمجد ماض او وضع حاضر ممتاز الا ان الاعتزاز بالماضي يساعد على تكوين شعور عام بين افراد الامة الواحدة . فكما ان الآلام والآمال تجمع الناس وتوحد بهم كذلك ذكرى هذه الآلام او الفخر بالحوادث التاريخية الجسام التي قامت بها الامة تساعد على الترابط القومي وتكوين الشعور العام .

ولهذا يصعب القضاء على امة لها تأريخ حافل مهما كانت قوة المستعمر وسطوته . والمستعمر يحارب امجاد الامم التي يستعمرها حتى يقضي

بذلك على تحسسها بالعزة والفخر .

٤ ـ اتحاد العادات والعقائد ـ وتجانس العادات يجعل الافراد متشابهين في مظهرهم متقاربين في حركاتهم واعمالهم كما ان اتحاد العقائد لا سيما الدينية منها يكون رابطة قوية يدفع كل واحد الى التعاون مع صاحبه والاندفاع في سبيل تحقيق المثل العليا لهذه العقائد .

ولا ننكر هنا ان بعض العقائد الدينية كانت حجر عثرة في تكوين القوميات بينما الاخرى تسهل نشوءها وتقوي تقدمها . فالدين المسيحي مثلا كان عقبة كأداء في سبيل القومية الالمانية بينما نجد الدين اليهودي صار عاملا فعالا في تقوية الفكرة الصهيونية .

وهناك من يضيف الى هذه العوامل الاساسية في تكوين القومية عاملا آخر لا سيما في العصر الاخير وهو المصلحة المشتركة بين افراد الشعب الواحد فكلما كانت المصلحة مشتركة كلما نمت القومية بسرعة وكان بناؤها متيناً بينما نرى ان هذه المصلحة تضعف القومية اذا كانت غير مشتركة .

ورغم اتفاق العلماء على اسس القومية العامة نجدهم ينقسمون الى قسمين فيؤلفون معسكرين متنازعين في افكارهم واتجاهاتهم .

فالمعسكر الاول كان يضم علماء الالمان الذين يرون ان أهم ركن للقومية هو وحدة الاصل والجنس بينما نجد المعسكر الثاني يضم علماء

الامريكان الذين يرون ان اهم دعامة تقوم عليها القومية هي اللغة والثقافة والشعور المشترك . ونحن نعلم بوضوح سبب اهتمام الالمان بالناحية العرقية لان تفرق العنصر الجرماني وخضوعه لدول مختلفة هو الذي حمل العلماء على منح العرقية المقام الاول في تكوين القومية .

بينما نجد رأي الامريكان منسجماً مع تكوين الدولة الامريكية التي تضم عناصر مختلفة وشعوباً متباينة . وقد وجد كل من الفريقين امثلة في الامم الاوربية يدعم بها نظريته ويقوي بها برهانه . وحتى يومنا هذا لم يحصل اتفاق تام على بحث القومية بين كافة العلماء .

وقد صادفت القومية مشكلة قوية ايضاً في القرن التاسع عشر وهي مشكلة الكيان السياسي اذ نرى العلماء يختلفون هنا ايضاً فمنهم من قال بان كل عنصر او كل شعب له الحق الطبيعي في تأليف كيان سياسي خاص به ، بينما نجد الآخرين ينكرون عليه هذا الحق متعللين بان هناك شعوباً كثيرة قليلة العدد لا تستطيع انشاء كيان خاص بها . وليس هناك مانع من الانضمام الى غيرها للتعاون في بناء هذا الكيان السياسي .

واهم العلماء الذين دافعوا عن هذه النظرية وهي لا حاجة هناك لايجاد كيان سياسي لكل قومية هم علماء النمسا وذلك لتثبيت دعائم امبراطوريتهم القائمة على شعوب وعناصر مختلفة . وقد ايدهم في ذلك علماء الانكليز والافرنسيين لانهم لمحوا ان بروسيا التي نادت بضم العناصر الجرمانية في

كيان سياسي واحد ستكون خطراً على مستقبل دولتهم ومكانتها السياسية العالمية .

اما العلماء البروسيون ومن ورائهم كافة القوميين الالمان فقد ناصروا فكرة تكوين كيان سياسي لكل قومية وذلك وفقاً للمنطق العلمي الذي ايد نظرتهم .

وقد اصطدمت القومية آنذاك بحركات معاكسة اهمها واقواها هي الحركة الاشتراكية التي حاولت ان ترجع تطور الشعوب ونشوء المجتمعات الى عامل اقتصادي بحت .

ولم تصبح الاشتراكية ذات مفعول قوي حتى وجهت نظرها نحو السياسة وحاولت دعم مبادئها بالقوة . ولم تؤثر الاشتراكية كثيراً في الشعوب التي نما فيها الوعي القومي او ارتفع فيها المستوى الثقافي. فنشاهد مثلا ان « كارل ماركس » (١٠) الالماني اليهودي رغم شغفه بفلسفة « هيكل » (١١) وتأثره بحالة العامل الانكليزي واعجابه بنظام الجماعات السلافية لا يؤثر كثيراً في الشعب الالماني او الانكليزي وانما كان تأثيره في نظام روسيا السوفياتية لان نظام الجماعات في الاراضي كان سائداً في جميع الشعوب السلافية قبل الاشتراكية الماركسية .

فالمانيا لم تصغ لكارل ماركس اليهودي الذي نما وتثقف فيها وانما بقيت معتزة بنظريات « هيكل » ومن تلاه من العلماء الالمان .

وانكلترا لم يحدث فيها صراخ « كارل ماركس » او انكل اي انقلاب سياسي او اجتماعي او اقتصادي وانما بقيت سائرة وفق قواعد « ادم سمث (١٢) الانكليزي .

بعد هذه المقدمة التاريخية يحسن بنا ان نحول نظرنا الى القومية العربية لنطبق عليها نفس المقاييس العلميه التي طبقتها القوميات الاوربية.

بدأت القومية العربية في القرن العشرين كما هو معلوم لديكم اي بعد قرن تقريباً على تكوين القوميات الاوربية . وسبب هذا التأخر معلوم لدى الكثيرين لان الامة العربية كانت تغط بسبات عميق ايام حكم الاتراك العثمانيين ولم يكن لها صلة باروبا لذلك بقيت بعيدة عن كل تطور علمي او صناعي او اجتماعي . ولكن بعد ان اتصلت الدولة العثمانية بالمانية في اوائل القرن العشرين وارسلت ضباطها الى المانيا للدراسة في معاهدها عاد هؤلاء الضباط حاملين الفكرة القومية التي طبعت الشعب الالماني واهم مظهر لها (العنصرية) لذلك اعتقد الشبان الاتراك ان لا بد لهم لانقاذ امبراطوريتهم مما هو محدق بها من اخطار من ازالة الفروق العنصرية الموجودة بين الشعوب التي تتألف منها هذه الامبراطورية العثمانية وذلك بتتريك كافة العناصر الغير التركية ومنها العنصر العربي. وقد قلد الاتراك الالمان في هذه القضية تقليداً اعمى ونسوا ان الشعب التركي اقلية ضئيلة بالنسبة للشعوب الاخرى التي تؤلف الامبراطورية العثمانية.

زد على ذلك ان بعض الشعوب التي تؤلف الامبراطورية العثمانية وفي مقدمتها العنصر العربي يتمتع بتاريخ وحضارة كانتا مفخرة لا للعرب فقط وانما للاتراك انفسهم .

وكان طبيعياً على ابناء العرب ان يقاوموا هذا الاتجاه التركي الجديد باساليب شبيهة بالاساليب التي اتخذتها بعض العناصر الاوربية في اثناء تحررها القومي فبدأت بذلك القومية العربية مدافعة سلبية لا مهاجمة انشائية . فلا نستغرب اذن ان نجد العرب حتى الآن اقوياء في حركاتهم السلبية لان السلبية عندهم مستمرة حتى يومنا هذا .

والصفة الثانية التي لازمت القومية العربية منذ نشوئها حتى يومنا هذا هي صفة الكفاح السياسي .

وقد وجدنا ان القوميات الاوربية دخلت في بادىء الامر في المختبرات العلمية والابحاث الفلسفية فبعد ان تم درسها وتحليلها وتكامل نضوجها تناولتها السياسة وبدأت تطبقها خطوة خطوة .

اما عند العرب فلم يسبق تكوين القومية العربية بحث فلسفي عميق ولا تحليل اجتماعي صحيح بل طفرت رأساً الى السياسة وبقيت تائهة فيها حتى اليوم .

ولهذا لا نعجب اذا ما سألنا احد القوميين العرب عن اسس القومية العربية وكيف يجب ان يكون شكل البناء فيها ان يجيبنا بلا تردد :

« على طريقة تكوين الوحدة الالمانية او الايطالية » وهو معذور في جوابه لانه لم يجد في حياته بحثاً دقيقاً عن القومية العربية واتجاهاتها واهدافها العملية وقد لايضير العرب رغم كنزهم التاريخي الاستفادة من التجارب التي مرت بالقوميات الاخرى. فها اننا نجد مثلا ان القومية الالمانية تعترف بفضل اليونان على تكوين اسس نهضتها ودعائم فلسفتها، وحتى السويسريين قد استفادوا من تاريخ « سبارطه » الشيء الكثير في تثبيت الوطنية السويسرية .

الا انه يجب على كل قومي عربي ان يكون ملماً بالفروق التي تفرق قوميته عن القوميات الاخرى التي يريد ان يستفيد من تطورها وعوامل تكوينها ليستطيع بذلك بناء قوميته على اسس ثابتة وقواعد متينة .

فالوحدة الالمانية كانت الى زمن قريب المثل الاعلى للقوميين العرب في تحقيق اهدافهم القومية . وقد بالغ بعض كتاب العرب في ذلك حتى نعتوا بعض الاقطار العربية ببروسيا العرب وبعض رجالها ببسمارك (١٣) العرب ومولتكه (١٤) العرب .

وبسمارك يعد بحق محقق هدف القومية الالمانية وهو الوحدة الشاملة فلا عجب اذن من ان يفخر كثير من حملة الافكار القومية في شعوب كثيرة بان يتشبهوا ببسمارك ، الا ان بسمارك لم يستطع تحقيق

الهدف القومي الا بعد ان سبقه شعور عام ملأ نفوس الالمان وكون فيهم عقيدة ثابتة بان لا حياة لالمانية بدون وحدتها التامة .

ومع هذا فلا ننكر ما لبسمارك من الفضل الكبير في تعجيل الوصول الى الهدف القومي . فقد كان بسمارك ذا شخصية متينة واطلاع سياسي واسع وجرأة بروسية نادرة واليكم بعض الامثال على ذلك :

كان بسمارك معلوماً لدى الساسة الاوربيين لانه قضى وقتاً كبيراً في السلك السياسي بين بين باريس وفينا ولينتغراد وكان صريحاً وقوياً في كافة مواقفه « الدبلوماسية » مما حمل الكثيرين من الساسة الاوربيين على مقاومته والحيلولة دون تسلمه السلطة التامة في بروسيا .

والمحادثة التالية تظهر لنا شيئاً من سر هذه المقاومة : قال بسمارك في حديث له عن مهمة بروسيا . ان بروسيا التي اخذت على عاتقها انجاز الوحدة الالمانية سوف لا تبالي بكل التضحيات والجهود في سبيل تحقيق هذا الهدف وسوف لا تقصر في تثبيت سلطتها في اوربا .

وعندما سأله المارشال « فالاند » الذي عين حاكماً عاماً لاحدى المقاطعات الافرنسية المهمة والمارشال من المعجبين كثيراً ببسمارك واحبه لجرأته وصراحته قال له : « يا عزيزي بسمارك اني احبك واحب المانيا لاسيما بروسيا الا انني واثق من انكم ان سرتم على هذه الطريق ستتقابل سوية بالسلاح عاجلا ام آجلا . نحن الافرنسيين اشبه شيء بالديك الذي

تسلط على بيوت الدجاج الاوربية ولا نسمح لغيرنا ان يصيح في اوربا»
فاجابه بسمارك :

«ان بروسيا لاتخشى احداً في هذا الوجود الا الله، واقل من تخشاه فرنسا . ان صياح الديك هذا لا يزعج النفس الالمانية ولا يقلقها . واذا شعرت فرنسا بالرغبة في الانتقام والهجوم فلها ان تفعل ذلك متى شاءت وستجد الشعب البروسي في كل لحظة مستعداً لمواجهتها .»

ثم قال ايضاً في احدى محادثاته مع بعض الافرنسيين : انتم ضعيفون جداً فاقوى ما لديكم من الاسلحة انما هو السنتكم الحادة واقلامكم الوقحة ...»

وقد كان بسمارك بعيد النظر عملي التفكير حتى في حل المشاكل القومية الداخلية . فقد تحدث هو نفسه عن بعض مواقفه الجريئة الجبارة فقال : «عندما عرضت ميزانية الدولة على البرلمان الالماني وبدأ النقاش يدور حول ميزانية الجيش البروسي رأيت من واجبي ان اظهر رأيي بوضوح وان اطالب المجلس بتخصيص اكبر ما يمكن من الميزانية للجيش ليستطيع الجيش البروسي ان يكون في وقت قصير اقوى جيش في اوربا وباستطاعته تحقيق الاهداف القومية التي تعهدت بها بروسيا للشعب الالماني وان يمحق كل مقاومة . وفي جملة المقاومات التي تعترض طريق الجيش البروسي هي النمسا التي اصبحت تعرقل تقدم القومية الالمانية ،

وصارت لعبة بيد الدول الاجنبية تستخدم ضد بروسيا وضد الهدف القومي الالماني العام. فانتهز المعارضون في المجلس وخارجه هذه التصريحات الجريئة وشنوا حملتهم على بسمارك بحجة انه يريد ان يخلق حربا اهلية بين ابناء العرق الواحد (اي العرق الجرماني) بحجة توحيده. وقد حدثت ازمة وزارية شديدة الا ان القيصر لم يكن آنذاك في برلين فاضطر القيصر تحت تأثير الضجة التي احدثها بسمارك وخصومه للعودة الى برلين كي يقيل الوزارة وينهي الازمة. فذهب بسمارك لاستقبال القيصر من مسافة خارج برلين وبدأ يناقش القيصر في صحة نظريته وان هذه هي الخطة الصائبة للوصول الى الاهداف القومية العامة. الا ان القيصر رفض الاصغاء اليه واجابه: «ثق يابسمارك اني لا استطيع ان اسندك ولا بد من الاستقالة» فاجابه بسمارك: «يا صاحب الجلالة ان في حياتك ضماناً للشعب وللامة وللاهداف القومية العامة» فقال له «اني ان سندتك فسوف اخسرك واخسر نفسي» فعز على بسمارك الامر واخيراً وقبل الدخول الى برلين قال له بكل صراحة وجرأة: «انني يا صاحب الجلالة اخاطبك الآن لا كقيصر بروسيا ولكن كضابط في الجيش البروسي الذي اقسم اليمين على خدمة بروسيا وتحقيق اهدافها القومية، ناشدتك بشرف الجندية، هلا ترى ان خطتي هي الصائبة وهي العملية في الوصول الى الهدف؟» فانتفض القيصر آنذاك وصعد الدم الى وجهه وقال:

« نعم يا بسمارك سر في سياستك وانا مؤيد لك وليحدث ما يحدث . » فسار بسمارك رغم كل الزوابع ثابت الخطى قوي الارادة في خطته .

ولم تكن آراء بسمارك مبنية على العاطفة او الدعاية بل هي مستمدة من عقيدة قومية وفلسفة متينة لذلك نجده سائراً على خطته بكل صراحة في كافة اعماله المختلفة سواء كان في السلك « الدبلوماسي » او في وزارة الخارجية او لما اصبح مستشاراً للدولة .

ولم ينفرد بسمارك وحده بهذه الصراحة والجرأة بل كانت عامة في جميع القوميين الالمان ، لا بل ملكت نفوس اكثر العلماء القوميين عند اكثر الشعوب الاوربية ، الا ان بعضها ظهر بطابع آخر غير الطابع البروسي العسكري . فها كم مثلا آخر وهو العالم السويسري بستالوتزي الذى مر ذكره واسمعوا ندائه الى وطنه .

لقد كان بستالوتزي من القوميين السويسريين الذي عاصروا نابليون ورأوا بعينهم خطره على بلادهم وكيان امتهم الصغيرة ، وقد زار باريس وشاهد نابليون فيها ودرس اعماله واتجاهاته ثم عاد الى وطنه سويسرة وجلا مما رأى وخائفاً من النتيجة . ففكر ان خير منقذ لبلاده من هذا الخطر الجديد واحسن معين على بقاء الكرامة السويسرية عزيزة الجانب هي التربية الشعبية لا سيما تربية ابناء الفقراء من الشعب .

فأسس مدرسته وبدأ يعلم النشء على طريقته الجديدة .

فكان يرى ان القومية لا يمكن ان تكون في نفس كل سويسري مالم يكن الفرد قادراً على العمل ، اما الشعور وحده فلا يكفي . ولذلك فقد نادى بان التربية يجب ان تستهدف تقوية الشعور والتفكير والعمل ، او كما سماها نفسه « تربية الرأس والقلب واليد » ولم تمض فترة من الزمن حتى ثبتت دعائم هذه التربية الجديدة في مدرسته فرفعته سويسرة الى مقام الزعامة الاول ، الا انه بقي مثابراً على خطته التربوية ولم يرجع الى السياسة رغم الحاح الكثيرين من رفاقه وابناء وطنه عليه ، وقد خاطب الشعب السويسري في عدة مناسبات بكلمات صريحة وجريئة اليكم بعضها :

« وطني ! ان مسؤولية هذه الفوضى الاجتماعية والمدنية تقع على عاتق الحكام من ابنائك قبل المحكومين ، فهم المسؤلون عن القيادة والتوجيه ولا يمكن ان تصلح هذه الحال حتى يتضامن الحكام والمحكومون في بناء كيانك وتشمل الهيأة الاجتماعية فكرة واحدة وخطة واحدة مقتبسة منك ومن خصائصك .

وطني ! انا واثق انك لم تفهمني خطأ ، فلا تخلط بيني وبين الناس المحتقرين الذين يعيشون فيك والذين يشغلون كل ايامهم في الجدل السياسي العقيم . انني لست من هؤلاء ياوطني ، فان اول وآخر سياستي هي التربية وكل امر لا يلامسها لا ابذل له جهداً كبيراً . انني ادع

بكل سرور اي شخص كان ان يقول رأيه واصغي اليه حتى ولو عارض رأيي ، ولكن لا احشر نفسي في زمرة اولئك الذين ليس لهم رأي خاص وانما يتمشدقون تمشدقاً ، ويستخدمون هذا التمشدق كرأي خاص لهم للحصول الى منافعهم الخاصة . ويحاولون منا ان نقبل ذلك منهم ، ثم يتهموننا اذا رفضناه بشتى التهم كأننا نحن المستغلون والمستثمرون !...

ولا احشر نفسي ياوطني ايضاً مع اولئك الذين اذا كلمتهم عن الحقيقة والواجب والحقوق الشخصية لاسيما حقوق الارامل والايتام والمضنكين من ابنائك وبرهنت على صحة قولي كما لو كان اثنان في اثنين اربعة ، اجابوا على ذلك ان هذا كلام طيب لطيف ولكنه بعيد التطبيق في محيطنا ووقتنا !..

ان هذه الجملة مثبطة للعزائم قاتلة للانتاج الشعبي والقومي .

ان حالنا تدعو الكل لاسيما الاذكياء والفعالين للبدء بالعمل رغم الصعوبات الحالية ، ولا انكر ان شخصاً يسير طول حياته محني الرأس لا يستطيع فجأة وفي لحظة واحدة ان يعتدل تماماً ويسير منتصب الرأس. ولو كان الوقت عادياً وطبيعياً لما كانت الحاجة كبيرة الى الاسراع في العمل .

اما وان البيت يحترق والنار تلتهم الغابات السويسرية ، وتتلف القرى

والمدن فلا يسمح لاي شخص مهما كان نوعه او مركزه ان لا يكترث في الواقع ، ويضع يديه في جيبه ويسير كما يشاء متفرجاً على حريق البلاد وتداعي ثروة الامة التي تلتهمها هذه النيران .

ايها الوطن ! لقد كنت في كفاح اوربا التحريري في المؤخرة نسبة الى التضحيات التي قدمتها لقاء عدوك وعدتك فلتكن الآن في مقدمة هذه الشعوب في المحافظة على هذه الحرية بواسطة عقلك وتفكيرك وحسن ادارتك ، ان الاجيال السابقة قد وضعت في عنقنا هذه الامانة : الجمهورية الصغيرة الحرة المستقلة . ونحن نعلم تماماً ان هذه الجمهورية احترمت من قبل شعوب اوربا لا لقوتها ولكن لضعفها فبضعفنا احترمت اوربا الحقوق الانسانية التي يجب ان تحترم . وبعض ابنائك يعتقدون اننا احرار مادام قانون بلادنا حراً وجمهورياً ، وكلما طالبناهم بالعمل اجابوا على ذلك اننا احرار ، كأننا ننكر عليهم هذه الحرية !.. ولكن يجب ان تثبت الحرية لا في القانون الاساسي وحده بل في روح وفكر ويد كل سويسري .

ايها الوطن !... ارجو ان تسمع ندائي اليوم وغداً لان عمري قد انقضى وقاربت الموت ، ومن واجب مودع الحياة ان يخاطب اصحابه واهله بكل صراحة واخلاص . فانصت الى اقوالي التي وان ظهرت ضعيفة الجمل ركيكة العبارات ، الا انها وصيتي الاخيرة ألفظ فيها انفاسي واصب فيها روحي وانا واثق من ان بلادي سوف تنال ما تصبو اليه ،

ولكن بعد موتي واندراس قبري !..»

ان هذه القومية المتينة وامثالها المبنية على العلم الصحيح والاطلاع العميق والشعور القوي ، هي التي تدفع المخلصين من ابناء الامم لان يكونوا جريئين ثابتين لا يتغير لهم موقف ولا تتزعزع لهم عقيدة . وهذه القومية لم تكن في عصر واحد فقط كما يتصور الكثيرون بل عامة في كافة العصور ، فهي التي دفعت مثلا في عصرنا هذا البطل الالماني لودندروف (١٥) ، بطل معركة « تانبرغ » والذي حاز على اعلى لقب عسكري في المانيا ، لان ينضوي تحت لواء الجندي النمساوي « هتلر » عند ما رأى انه يقدر ان يحقق للشعب الالماني اهدافه ويوصله الى غايته القومية . وهي نفسها التي حملت ابن القيصر (١٦) « ويلهم » لان يدخل في الحزب « النازي » الذي كان يمثل العمال ويسير في الشوارع تحمل الصناديق لجمع التبرعات من عامة الشعب للفقراء ، وينشد النشيد الالماني ، ويحمل راية الحزب التي تخالف راية المانيا في عهد اجداده وأبائه . وقد اكبره الشعب الالماني وانتظر منه ذلك ، لان الروح القومية هي التي تضعف الاعتبارات الاخرى .

وهذه القومية المتينة هي التي اوجدت الديمقراطية السويسرية والتي دفعت كل فرد من افراد الشعب السويسري لان يكون حاضراً للدفاع عن الوطن بحيث يلحق بفرقته خلال ساعتين اذا اعلن النفير العام في سويسرة وهي التي

ازالت كل الفروق العنصرية والشعبية وحتى الاقتصادية بين الحكام وابناء الشعب في سويسرة ، فخلقت منهم كتلة متراصة رغم صغر بلادهم وقلة نفوسهم واختلاف عناصرهم ولغاتهم حتى اصبحوا الآن موضع تقدير العالم باسره ومضرب الامثال في الرقي والترابط الشعبي .

وامثال هذه القومية هي التي تدفع برجال الحكم والمعارضين في انكلترا لان يسيروا متعاونين متفاهمين على مصلحة الامبراطورية الانكليزية . فمصلحة الامبراطورية فوق كل مصلحة واعتبار .

واننا نجد امثال هذه العقيدة ايضاً في تاريخنا الاول . فعندما ملكت نفوس العرب عقيدة قومية تناسوا كل ماينهم من ضغائن واحقاد وتركوا الاعتبارات والتقاليد وساروا في طريقهم حائزين اعجاب العالم وتقديره . فقد دفعتهم عقيدتهم لان يقاتلوا تحت الراية الاسلامية الجديدة اقاربهم وابناء عشيرتهم وحتى آباءهم واخوتهم .

اما القوميون العرب السياسيون منهم والعلماء فيعتمدون في آرائهم على العواطف الحادة الآنية ، ولا انكر عليكم انني شاهدت مثلا حفلة قومية في بغداد خطب فيها كثيرون من رجالات العرب ونادوا بتجديد البيعة للملك والعزم على مواصلة الكفاح القومي ولم تمض الا فترة قصيرة من الزمن حتى رأينا اكثر هذه الاصوات تخفت بعد ان نالت بعض ما تشتهيه في اقطارها . الا ان هناك نفراً من ابناء هذه الامة اتهلوا

القومية العربية من منبع قوي واستقرت في نفوسهم على اساس علمي متين لذلك لم يتغيروا في خلقهم ولم تضعف قوة كفاحهم ومن هذا النفر القليل الدكتور صبحي ابو غنيمة ، لقد سمعت اباغنيمة لاول مرة مع الوفود العربية ينادي ببغداد لتقديم المساعدة لانقاذ فلسطين وسورية وشرقي الاردن الا ان قومية بغداد كانت آنذاك فكرة الملك اكثر منها فكرة الشعب .

وسمعته آخر مرة بعد مرور خمسة عشر عاماً على ندائه الاول ، اي قبل بضعة اسابيع في هذه القاعة نفسها يصرخ ثانية باعلى صوته مطالباً دمشق بمساعدة فلسطين وشرقي الاردن ويعيد ما قاله سابقاً في بغداد من ان استعمار شرقي الاردن يؤلف خطراً على كافة الاقطار العربية .

واريد ان اضيف مؤيداً الدكتور اباغنيمة بان الايام السالفة برهنت على ان معركة شرقي الاردن قد قررت مصير سورية . فمعركة اليرموك هي التي فتحت ابواب المدن السورية امام الجيوش العربية . واثبتت المعارك التي دارت بين الجيش العراقي والقوات الانكليزية الزاحفة من شرقي الاردن ايام حرب العراق عام ١٩٤١ ان معركة الرطبة هي التي قررت مصير بغداد .

ويحسن بنا ياسادة ان ننظر ثانية الى القومية العربية على ضوء هذه

الملاحظات لنرى اليوم بعض الاسس التي يجب ان تبني عليها قوميتنا .

ان اهم دعامة ترتكز عليها القومية العربية كما ارتكزت عليها القوميات الاخرى هي الفلسفة القومية فهي التي تعطي الاتجاه الثقافي وتكون العقيدة القومية وقد رأينا ان قوميتنا خالية من هذه الدعامة الاساسية .

فالى يومنا هذا لم تبحث القومية العربية بصورة علمية(١٧) ولم يصرف عليها بعض كتاب العربية او علمائهم شيئاً من وقتهم او جهداً من تفكيرهم ، لذلك نرى الخلط الكثير في المجلات والجرائد والخطب والمحاضرات عند بحثها القومية العربية .

وقد لا نستغرب ايها السيدات والسادة ان نرى كثيراً من ساسة العرب وحتى من كتابهم المشهورين ما زالوا يخلطون بين الفكرة الشرقية والفكرة العربية او بين القومية العربية والوحدة الاسلامية .

فالفلسفة القومية هي التي تحدد الاهداف والطرق وتبين علاقة القومية بالحركات الاجتماعية الاخرى . وفقدان الفلسفة من القومية العربية جعلنا نخلط كثيراً بين القومية العربية والدين الاسلامي . على اني لا انكر ان الدين الاسلامي هو الذي رفع شأن الامة العربية وساقها الى انشاء مدنية وحضارة عالمية .

الا اننا اليوم اصبحنا نعيش في عصر يسود فيه التحديد في كل

شيء فلا ينبغي لنا ان نخلط بين فكرة وفكرة وعقيدة وعقيدة .

ومن ساح البلاد العربية وجد ان الحركات القومية في كافة الاقطار متداخلة في الدين بصورة اصبح العالم لا يميز الآن هل هذه الحركات في الشرق العربي ذات صبغة قومية ام انها ثورة دينية ؟

واذكر لكم انه عند زيارتي للمغرب العربي وجدت العرب هناك لايفرقون كثيراً بين العربي والمسلم والمسيحي والاجنبي . والسبب في ذلك واضح فان بلاد المغرب العربي موتورة من اوربا لاسيما بعد خروج العرب من الاندلس وتنصير العرب المسلمين فيها .

زد على ذلك ان الاستعمار الاوربي الذي جثا على صدر هذا القسم من الوطن العربي لا يزال يزهق روحه ويحاول القضاء على انفاسه ولاسيما ان مستعمري المغرب العربي كلهم من الشعوب الاوربية التي يسود فيها التعصب الكاثوليكي كما انه لا يوجد عرب في المغرب العربي غير مسلمين كما هو عندنا في الشرق العربي .

ولما كان الدين الاسلامي خير وسيلة للمغرب العربي والشرق العربي ليقارع به الاستعمار اصبحت الشعوب العربية تستخدم هذا السلاح ضد الاستعمار الغاشم ولا تزال تتمسك به حتى الآن . ومهما حاولت فرانسة ان تفصل بين العنصر العربي في شمال افريقية والبربر لم تفلح رغم سطوتها ووسائل اغرائها لان العقيدة الدينية قوية في نفوس العرب والبربر وتؤلف

منهم اخوة متراصين ضد الافرنسيين المستعمرين. واوربا ما زالت تعتقد ان الروح القومي في الشرق الادنى ضعيف وان العقيدة التي تعم شعوب هذا الشرق انما هي العقيدة الدينية المتعصبة. ورغم مخالفة الواقع لهذا الاعتقاد سواء كان ذلك في حوادث الثورة العربية الاولى او في كفاح فلسطين او الكفاحات الاخرى التي اشتركت فيها العناصر العربية على اختلاف اديانها ومعتقداتها ما زالت اوربا متمسكة برأيها اما عن جهل او سوء قصد. ونحن نعذرها الى حد ما في هذا الرأي لان القوميين العرب انفسهم لم يحددوا موقفهم حتى الآن من الدين بصورة دقيقة. ولست بحاجة الى ذكر الامثلة على ذلك فهي كثيرة وظاهرة في كل حركة قومية او مناقشة عامة.

والدعامة الثانية التي يجب ان تقوم عليها القومية العربية هي الايمان القومي ولا يتم هذا ويشمل نفوس الافراد حتى تنضج الفكرة وتتشبع نفوس الاجيال الحاضرة بالعزة التاريخية وتتذوق اللغة العربية كما حدث ذلك في اكثر القوميات الاخرى.

وكيف ننتظر من ابناء العرب اليوم ايماناً قومياً وهم يجهلون تاريخهم ولغتهم ولا يعرفون عن بلادهم العربية وما يجري فيها من تطورات وانقلابات بقدر ما يعرفون عن الدول الغربية والامم البعيدة عنهم. فلا يمكننا مثلا ان نتطلب من المدرسة العربية تحقيق هذا الايمان القومي

مالم نوجهها توجيها صحيحاً ونفسح المجال لها للتعرف على بلاد العرب كافة.

فالشعب العربي في جميع الاقطار. رغم وجود الجامعة العربية ورغم مظهر التعاون العربي السياسي للحكومات العربية لا يزال اكثر افراده وحتى طلاب مدارسه وبعض رجال دوله لا يعرفون عن الحجاز واليمن او عن تونس ومراكش بقدر ما يعرفون عن لندن وواشنطن وموسكو!..

والدعامة الثالثة التي يجب ان تقوم عليها القومية العربية هي الاصلاح الاقتصادي. فالشعب العربي ما زال يعيش قسم كبير منه في هذا العصر الذي ساد فيه النور والكهرباء والميكانيك عيشة العصور التي سبقت التاريخ. وقد نزلت حوادث جسام على الامة العربية وغيرت كثيراً من انظمتها وعاداتها الا انها لم تغير شيئاً كثيراً في نظامها الاقتصادي. فها اننا نرى القسم الاكبر من البلاد العربية قد انفصل عن الدولة العثمانية وله حكومات محلية ذات صبغة استقلالية او شبيهة بذلك، ولكن رغم اتصالها السياسي باوربا نجد ان الجهل والفقر والمرض هي التي تسود عامة الشعوب العربية. فلا تزال البداوة منتشرة في كل بقاع العرب، ولا يزال الاقطاع هو النظام الزراعي السائد في اكثر الدول العربية يعرقل سير التطور الزراعي المطلوب.

وحتى يومنا هذا لم نجد هيئة قوية تعالج هذه الناحية الحيوية في

بلادنا وتطالب الحكومات العربية باجراء اي اصلاح جوهري في الحقل الاقتصادي مع ان دول العالم جميعها قد تأثرت الى حد كبير بالافكار والآراء الاقتصادية الحديثة . فالتوزيع والانتاج في بلاد العرب لايزال كما كان عليه قبل عدة عصور ، اللهم الا بعض التغير البسيط الذي حدث خلال الحرب ولضرورة الحرب فقط . واذا بقي القوميون يهملون هذه الناحية الحيوية تاركين الامر يسير وفق رغبات ذوي المصالح الخاصة فقد لايثبتون كثيراً امام هجمات اليسارين القوية . فالقومية يجب ان تستفيد من تطور الزمن الذي حصل في العالم ، لا سيما في الناحية الاقتصادية لتستطيع ايجاد شعب منتج يفهم كيف يستفيد من انتاجه الاقتصادي ويزيد ثروة البلاد العامة . ويقدر ما عليه من الواجبات كما يستطيع ان يتمتع بحقوقه الكاملة .

والفكرة القومية انما هي فكرة انشائية مستمدة من خصائص الامة وقابلياتها فعلى ضوء هذه الخصائص والقابليات يجب ان تضع لها منهجاً اقتصادياً ونظاماً زراعياً .

فالقومية تحارب البداوة والبطالة والاقطاعية ولكنها تغير نظمها وفقاً للنظم العربية ومصلحة البلاد .

والدعامة الثالثة التي يرتكز عليها بناء القومية العربية هو التمركز السياسي فالى زمن قصير كان الاتجاه العربي موحداً في هذا التمركز

لذلك دعي العراق قبل الحرب العراقية ببروسية العرب . اما الآن فقد زال هذا التمركز ولا نجد القوميين من العرب يحذون حذو القوميين الآخرين من تعيين هذا المركز القومي الذي يعتقدون فيه انه سيحقق لهم غاياتهم القومية ليمركزوا جهودهم فيه .

اننا نشاهد الى الآن اكثر الجمعيات القومية في البلاد العربية لا تملك فكرة واضحة عن مقر هذا المركز . فلولا بروسية مثلا لما كانت المانيا فلا بد اذن من ايجاد مركز سياسي يسنده كافة القوميين العرب ويضعون انفسهم تحت تصرفه كما فعل الالمان في بروسية .

اما الوسائل التي تتوسل بها القومية العربية للوصول الى هدفها بسرعة فاهمها المدرسة والثكنة فيجب على القوميين العرب ان يوحدوا هاتين المؤسستين لتخرج لهم جيلا جديداً مؤمناً بقوته واهلية امته للحياة . ولم يستطع الالمان الحصول على « بسمارك » و « مولتكه » قبل ان يسبقهما « هيكل » و « كنت » و « فشته » كما انه لم يمنح الافرنسيون نابليون قبل ان يسبقه فيهم « مونتسكيو » و « فولتير » و « روسو » ولم تستقر القومية الانكليزية لتخرج « لويد جورج » وامثاله من السياسيين قبل ان يسبقه « جون لوك » و « ستوارت » و « آدم سمث » كما لم يوجد في العرب خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب قبل ان تسبقهما الاسواق العربية والفكرة الاسلامية . ولذلك فلا يمكن لنا ان ننتظر ان يكون

منا ثانية الوليد والرشيد وان نعيد ونشيد قبل ان يسبق ذلك ايمان قومي وعقيدة عربية . ولا نتوصل الى هذا الايمان القومي والعقيدة العربية الا بواسطة المدرسة والثكنة مستفيدين من نظم الغرب موقظين آثارنا القديمة الزاهية .

وقبل ان اترك مكاني هذا لا بد لي من تقديم شكري الجزيل للنادي العربي الذي هيأ لي هذه الفرصة السعيدة للتحدث الى اخواني القوميين في سورية ، والنادي العربي هذا يحتل مكاناً عالياً في نفوس ابناء العرب كما انه يقع في قلب دمشق فهو قد اتخذ مقره بين شارع الحلبوني الذي يقوم فيه المعهد الثقافي البريطاني وشارع الروضة الذي يحتوي على جمعية التعاون الثقافي السوري السوفيتي ، ولا يضيره ان يسمع بأذنه اليمنى ما يقوله شارع الحلبوني ، وينصت بأذنه اليسرى الى شارع الروضة ما دام يتجه بوجهه وبقلب اعضائه وتفكيرهم نحو ساحة الشهداء مبعث الفكرة القومية العربية حيث تحيط بها من كل جانب حارسة لها بنايات الجمهورية العربية المستقلة .

المغرب العربي

حادثان مهمان للامة العربية حدثا في هذا الشهر (١٨) مرت عليهما الصحافة العربية مر الكرام. الحادث الاول هو خبر انتشار موجة المجاعة التي طغت بعض الاقطار العربية وفي مقدمتها المغرب العربي اذا اكتسحت هذه المجاعة المغرب العربي من اقصاه الى اقصاه مع انه غني بالخيرات الزراعية والمواد الاولية والايدي العاملة .

والصحف العربية لم تبحث الموضوع بقدر ما يستحقه هذا الحادث من الاهمية . فلم تكلف نفسها حتى عناء السؤال عن اسباب هذه المجاعة وطرق مكافحتها كما انها لم تنبه الامة العربية الى واجبها القومي تجاه هذه الاقسام العربية التي نزلت فيها الكارثة .

والحادث الثاني هي ما اذاعه الراديو من ان الحكومة الافرنسية والانكليزية رفضتا السماح للجنة الهلال الاحمر المصرية التي استطاعت جمع بعض التبرعات لهذه الاقطار لتوزيعها كمساعدة على السكان المحتاجين في المغرب العربي .

وقد يستغرب الانسان هذا الرفض من قبل الحكومتين اللتين

تحكمان المغرب العربي او تسيطران عليه الآن مع ان الدولتين لم تستطيعا رفض لجان الصليب الاحمر السويدية او السويسرية في الذهاب الى المانيا عدوتهم الاولى لتوزيع المساعدة الغذائية لما اصابها من الجوع في نهاية الحرب الماضية زد على ذلك فان صلة البلاد العربية بالمغرب العربي صلة قربى واتصال مباشر اكثر من صلة الشعب السويدي او السويسري بالشعب الالماني .

و كيف تستطيع الدولتان ان تستهترا من مطالب البلاد العربية في وقت اخذت القضية العربية تشغل مكاناً هاماً في السياسة العالمية ولها خمس دول ممثلة في هيئة الامم المتحدة والاغرب من ذلك انه لم يرتفع صوت من الامة العربية يظهر النقمة والالم من هذا العمل الذي يخالف الانسانية ولا يتفق ومبدأ الحق البشري الذي اعلنت الدول انها تدافع عنه ، وقد سكتت الهيئات العربية الشعبية عن هذا الحدث الهام ايضاً ولم تستطع ان تسجل احتجاجها مع ان امتنا اعتادت تسجيل الاحتجاجات في اكثر المناسبات الهامة والبسيطة .

فلتفسير هذا السكوت الشعبي ولتبيان سر معاملة الدول الاوربية لنا في قضية المغرب العربي ، لابد لنا ان نبحث اولا في القضية العربية وعلاقتها في المغرب العربي واتجاهاتها لنعرف سر هذا الامر ومغزى هذه المعاملة .

الامة العربية تمتاز عن كثير من الامم الاخرى المشابهة لها في الهدف والغاية في انها امة كانت قديماً موحدة وقضت زمناً طويلا تابعة لدولة مركزية واحدة لذلك فالشعور بالوحدة العربية او الاتحاد العربي او ضم كافة الاقطار العربية في نظام واحد مقبول في نفس كل عربي وهذا الاتجاه يثبته التاريخ وتدعمه الحاجة فهدف الامة العربية اليوم ليس حلماً كما كان الحال عند فلاسفة الالمان او شعراء الطليان وانما حقيقة واقعة وهذه الحقيقة هي التي استطاعت ان تحافظ على بقاء الامة العربية صامدة امام خطوب الدهر ومطامع الدول الاستعمارية ذات القوة والسلطان .

واهم اعتراض يوجه الينا رجال اوربا هو كيف يستطيع العرب ان يوحدوا هذه البلاد الشاسعة الواسعة الاطراف التي تمتد من المحيط الاطلسي حتى خليج البصرة والتي تضم هيئات اجتماعية متباينة ومصالح مختلفة ؟ وهذا الاعتراض قد صادفته بنفسي من احد الاساتذة الالمان الذين كانوا يهتمون بامر العرب ويريدون ان يفهموا امكانية تحقيق الوحدة بين الاقطار العربية فأجبته بان العرب استطاعوا في وقت لم تتعد فيه طرق المواصلات الابل والخيل والحمير من توحيد هذه البلاد وجعلها خاضعة لدولة مركزية عاشت قروناً وانتجت حضارة ومدنية لا تزال آثارها في آسيا وافريقيا واوربا تشهد لها . فاذا استطاعوا في ذلك الوقت

ذي الوسائط الابتدائية ان يوحدوا هذه البلاد ويديروا الحكم فيها بعدل ودقة فهلا يستطيعون في هذا اليوم الذي ظهر فيه الكهرباء واللاسلكي والطيارة والسيارة من توحيد الوطن العربي .

وهناك دول كثيرة اخرى (١٩) اراضيها اكثر اتساعاً من بلاد العرب وشعوبها اكثر اختلافاً فيما بينها من الشعوب العربية ومع ذلك فهي تعيش في نظام موحد وتدار من قبل حكومة مركزية واحدة فما دامت هذه البلاد ترتبط برباط قومي واحد وتستهدف هدفاً واحداً فلا يضيرها اكبرت مساحة ارضها ام صغرت ، اقل عدد سكانها ام كثر .

لذلك فان الزمن كفيل بتحقيق هدف الامة العربية كما حقق لكثير من الامم الاخرى هدفها فما دامت امتنا تؤمن بذلك فسوف تصل يوماً ما الى غايتها .

فاذا كان الزمن سيكفل ذلك فما هي وظيفة الحركة القومية ولم تصرف الجهود من اجل ذلك ؟

كما ان الهدف في العلم هو استثماره في الصالح العام وخدمة الانسانية فكذلك هدف الحركات القومية العام هو تعجيل الوصول الى الهدف لاستثمار قوى الامة في الاصلاح بعد تكتلها وتقديم رسالة بشرية ، وهذه الغاية العامة هي التي تدفع بالقوميين من ابناء الامم للتضحية ولاسراع خطاهم في حركاتهم الاصلاحية .

ان الحركة القومية انما هي مدرسة الامة، فكما ان واجب المدرسة اختصار الطريق وتسهيل اكتساب المعلومات الضرورية للحياة بواسطة تنظيمها وتنسيقها وجعلها في مستوى الطلاب وقابلياتهم، فكذلك الحركة القومية تعتمد في سيرها على خصائص الامة والاسس العلمية للمجتمع الذي تعمل فيه لتستطيع بذلك تنظيم سبل الكفاح وطرق العمل وكلما خطت بسرعة اقتصرت الزمن واستفادت من ثمرة الكفاح والعمل واستخدمت نتائج ذلك في تحسين حالة البلاد ورفع مستوى الشعب.

وحركتنا القومية شبيهة بمدرستنا فكما ان المدرسة العربية لم تستطع لعدم وضوح الخطة وتهيؤ الامكانيات الضرورية لها من اصلاح الجيل الحاضر او اخراج جيل يتمتع بالصفات التي تصبو اليها الامة، فكذلك الحركة القومية العربية لم تسجل حتى الآن نصراً جوهرياً في ميادين السياسة وساحات الكفاح ولذلك اسباب عدة.

لنستعرض الآن ما هو معلوم لدينا عن الحركة العربية وعلاقتها بالمغرب العربي ولننفذ قليلا الى زواياها المظلمة علنا نرى نقاط الضعف فيها بوضوح.

لقد بدأت القضية العربية في ثلاث مراكز مختلفة وبوسائل متباينة ولكنها كانت كلها تستهدف غاية واحدة وتتجه نحو هدف واحد.

فالمركز الاول وجد في داخل البلاد العربيـة لا سيما في بيروت والشام والقاهرة حيث بدأت الجمعيات الادبية واللجان الثقافية تقوم بواجبها القومي في احياء معالم الامة العربية الادبية المندثرة وقام هـذا المركز بخدمة كبيرة اذ استفاد من كنز الامة الثقافي فنشر كثيراً من آثار العرب واحيا كثيراً من معالم اللغة العربية .

اما المركز الثاني فقد اتخـذ مقره في الاستانة وبدأ بصورة ادبية اولا وضم شمل الطلاب العرب الذين كانوا يدرسون في عاصمة الدولة العثمانية في جمعيات ثقافية ونواد ادبية ثم مال نحو الاتجاه العسكري لان اكثر الطلاب العرب كانوا انذاك في مدرسة الحربية التركية وقد وجد هناك عـدد من الضباط العرب الذين اختلطوا برفاقهم ضباط الاتراك فلمسوا فيهم الروح العنصرية التركية العنيفة وانهم لا يعبأون الا بـكل ما هو تركي فقط فكان طبيعياً على ابناء العرب ان يفكروا في التكتل وجمع الشمل ليتدبروا امر امتهم العربية ومستقبلها .

اما المركز الثالث فكان في باريس ، وباريس كانت قبل الحرب العالمية الاولى مركزاً سياسياً وثقافياً هاماً ضم جمعاً كبيراً من شباب العرب لا سيما من سوريا والمغرب العربي ومصر لاكتساب العلم والاستفادة من الحضارة الغربية . وباريس كانت تشجع كل حركة ضد الدولة العثمانية فسياستها اذن سياسة عطف على العناصر المناوئة للاتراك

وفي مقدمتها العناصر العربية لانها كانت طامعة في اخذ جزء آخر من اجزاء الامبراطورية العثمانية، فكانت مقررة الاستيلاء على سورية ولبنان لتضيفهما الى مستعمراتها الاخرى، فهي لم تكتف باستعمار اكبر قسم عربي في شمال افريقيا بل وضعت خطتها لاحتلال هذه البقعة العربية الجميلة وقد شجعتها على وضع هذه الخطة امور كثيرة اهمها ضعف الدولة العثمانية ووجود عطف على فرانسا في هذه القطعة العربية لان فرنسا ظهرت منذ زمن يزيد على القرن بانها تدافع عن الحرية والمساواة فاستخدمت مبادىء الثورة الفرنسية وسيلة لاكتساب عطف شعوب كثيرة ومنها الشعب العربي في هذا القسم من الوطن العربي وبما أن الخلاف بدأ يدب بين الشعب العربي ورجال الحكم في تركيا من جراء انتشار الفكرة العنصرية الضيقة في نفوس الشباب التركي الذي استولى على الحكم في تركيا واصبح يدير الدولة العثمانية وفقاً لخطة، فكان طبيعياً ان ينال مركز باريس العربي عطف السياسة الافرنسية ويأخذ الاتجاه السياسي في سيره.

وقد اقتصر مركز باريس في حركته على ابناء العرب من القسم الشرقي ولم يشترك معهم اخوانهم المغاربة الذين كانوا آنذاك قوة كبيرة ومستعدين لان يساهموا مع اخوانهم العرب في كافة الحركات التحريرية والسر في ذلك يعود الى نقطتين هامتين.

الاولى ان فرنسا كانت تعطف على الحركة العربية على شرط ان لا تتناول المغرب العربي والثانية لان الوعي القومي انذاك كان محدود المدى مقتصراً على البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية فكان هدف العرب تخليص البلاد العربية من حكم الاتراك اكثر من تأسيس حركة عربية قومية عامة .

ولو نهج العرب في باريس النهج القومي الصحيح واستفادوا من تجمعهم من جميع اقطار العرب فوحدوا حركتهم لتغير وجه التاريخ العربي فهذا الاتجاه الضيق في القضية العربية مازال يؤثر على تطور الحركة العربية لا سيما قضية المغرب حتى يومنا هذا .

فها اننا نجد ان جميع المراكز العربية الثلاث لم تكن ذات صلة وثقى بالمغرب العربي ولم يحاول اي واحد منها ان يستفيد من قوة العرب في المغرب فيستخدمها في صالح الامة العربية ويضع بذلك أسس القومية العربية على قواعد ثابتة واسس صحيحة .

ولما اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى اضطر العرب قبل ان تنضج قضيتهم ان يشتركوا فيها فانقسموا الى قسمين قسم يقاتل بجانب الاتراك كضباط وجنود تابعين للدولة العثمانية وقسم فر الى الحجاز فكون جبهة عربية استطاعت بمساعدة الحلفاء ان تعلن الثورة على الحكومة العثمانية .

فدخول العرب الاحرار بجانب الحلفاء الذي كان يضم فرانسا المستعمرة لشمال افريقيا لم يفتح للعرب مجالا للتفكير في امر المغرب العربي كما انه ليس هناك ما يدعو لذلك في نظر العرب آنذاك فانصرفت الجهود كلها لمحاربة الاتراك والتخلص من حكمهم الجائر دون ان تؤخذ الحيطة ضد الحليف الجديد الذي ظهرت نيته السئية ومطامعه الاستعمارية في اثناء الحرب نفسها (٢٢).

فعدم التفكير في قضية المغرب في كل مراحل القضية العربية للاسباب التي ذكرت جعل الحركة العربية كحركة قومية مبتورة غير كاملة افقدها الدعامات الاساسية التي تحتاجها الحركة في بناء كيانها وهذا هو السبب الاول في ان اكثر حركاتنا القومية ما زالت تأخذ الشكل الاقليمي المحلي لاننا لازلنا نسير على نفس الطريقة الاولى فرجال سياستنا رغم اقتناعهم المنطقي بالاتجاه العربي العام ما زالوا غير عابئين في خطواتهم السياسية العملية بما يحدث او يجري في المغرب العربي ولا يعيرون ذلك مايستحقه من التفكير والجهد السياسي (٢٣).

بعد هذه المقدمة عن الحركة العربية واسسها يحسن بنا ان نجيل الطرف في افريقيا الشمالية ولا بأس من ان نرجع الى بعض الحوادث التاريخية القديمة التي لها علاقة وتأثير في وضعنا الحالي.

عرف التاريخ شمال افريقيا لما كان مسكوناً من قبل عشائر بربرية

ذات لهجات معينة وعادات ثابتة وقد ارجع كافة العلماء غير المتحيزين اصل البربر الى العنصر العربي فقد ثبت ان القبائل البربرية قدمت افريقيا من آسيا كما ان لهجاتهم و كثيراً من عاداتهم لها صلة وثقى بلهجات وعادات حمير اليمانية الا ان البربر كانوا على صلة وثقى بمصر واوربا لموقع شمال افريقيا الجغرافي وبعدهم عن الانقلابات الاجتماعية والسياسية في الجزيرة العربية وما حولها فثبت فيهم طابعهم الخاص وجعله منسجماً مع محيطهم الجديد وعلاقاتهم مع جيرانهم .

و كثير من البربر من استطاع ارجاع نسبه الى قبائل عربية كما ان تولي طارق بن زياد قيادة الجيش العربي في زمن الامويين الحريصين على العصبية العربية يثبت لنا ذلك ويدعم هذا الادعاء .

الا ان انقطاع البربر عن الموجات العربية احدث تباعداً بين القسمين خففت هذا التباعد من فترة بعض العلاقات التي حصلت بين القسمين المتباعدين .

فأول اتصال وثيق حصل بين جزيرة العرب والهلال الخصيب وبين شمال افريقيا هو هجرة الفينيقيين الكنعانيين من صور الى شمال افريقيا وتأسيسهم بلدة قرطاجنة ثم دولتها وذلك في القرن الثالث قبل المسيح . فكونت قرطاجنة دولة ذات سيادة بحرية وتجارية وسهلت امتزاج المدنية الشرقية بالغربية وليس هذا الامر بغريب مادام العنصران يمتدان الى اصل واحد.

وبتأسيس قرطاجنة بدأ النزاع الشديد بين اوربا والعناصر العربية وما زال مستمراً حتى يومنا هذا . والتاريخ رغم تحزبه الكثير يثبت لنا وجه الشبه بين اخلاق الدولة القرطاجنة واخلاق العرب اثناء الدعوة الاسلامية وبعدها ففي النزاع الذي حصل بين قرطاجنة وروما ظهر التسامح العربي باجلى مظاهره بينما سجلت القسوة الاوربية رقماً قياسياً، فها ان التاريخ يذكر ان الرومان قد احرقوا قرطاجنة ثلاث مرات وسبوا النساء ودمروا كل معالم الحضارة والمدنية فيها فيذكر مثلا ان عدد سكان قرطاجنة كان قبل احتلال الرومان لها ٧٠٠ الف نسمة فاصبح بعد ذلك ٢٥ الفاً من الرجال و ٣٠ الفاً من النساء سيقت سبايا .

وهكذا اتلفت روما اكبر مدينة شرقية آنذاك كانت تقيد العالم مع ان التاريخ لم يصفها بالوحشية كما وصف اعداءها وهم الجرمان الذين لم يقوموا الا بتخريبات جزئية بالنسبة لهذه، فدعاهم بالبرابرة ولا زال الكثيرون متأثرين من هذا اللقب الذي نالته القبائل الجرمانية .

فاستيلاء روما على شمال افريقيا لم يتصف بصفة التدمير والتخريب والقتل والتشريد فقط وانما امتاز ايضا باستعمار فظيع فكان الرومان يسلبون الارض من سكانها ويتملكونها ويقسمونها بينهم دون ان يراعوا حرمة قوانين او عدلا انسانيا .

هاتان الصفتان التي اتصف بهما الاستيلاء الاوربي على شمال افريقيا

منذ القديم بقيت ملازمة لاستعمارهم حتى يومنا هذا ، وهذا ما يفسر لنا بجلاء سر بقاء هذا الجزء العربي من بلاد افريقيا حياً رغم المصائب الكبيرة والكثيرة في الزمن الماضي والوقت الحاضر . وقد بقي النزاع شديداً بين افريقيا الشمالية واوربا الجنوبية ، الا ان افريقية العربية لم تستخدم نفس الطريقة التي استخدمتها اوربا مع ان افريقيا سجلت انتصارات كثيرة على جنوب اوربا واحتلت في مناسبات كثيرة عدة اقسام منها ، فالرقة العربية والتسامح العربي ظهرا جلياً في طباع العناصر العربية اينما كانت وفي كل زمن ، فرغم استطاعة سكان افريقيا اثناء هجوم الوندال (الجرمن) على الرومان وانتهاك حرمتهم فقد قاتلوهم بنفس السلاح الروماني ، وهو القتل والتشريد والسبي وابوا ان ينتقموا لانفسهم ويعاملوا الرومان المنكسرين مثل ما عوملوا به ايام عزهم وانتصارهم فوقف اهل البلاد الاصليين متفرجين محايدين وابت كرامتهم ان يشأروا من الرومان او يشاركوا الوندال الاوربين في اعمالهم رغم الآلام الكثيرة التي كانوا يقاسونها من الرومان طيلة حكمهم .

وقد صنع اليونانيون بالوندال اثناء احتلال افريقيا الشمالية مثل ما صنع الوندال بالرومان وبقي السكان الاصليون على الحياد ايضا وغير مشتركين في هذه الاعمال القاسية . ورغم احتلال افريقيا الشمالية من قبل اوربا عدة مرات لم تستطع اوربا ان تؤثر عليها لابعاداتها ولا بثقافتها

ولا بنظمها الاجتماعية بل بقي السكان محافظين على عاداتهم القديمة وطبائعهم الشرقية ولغاتهم المحلية .

ويذكر التاريخ ان الرومان تأثروا اكثر مما استطاعوا ان يؤثروا .

ولما زحفت جيوش العرب تحمل الراية الاسلامية وتنشر الدين الحنيف انقذت جيوش العرب الجزائر افريقيا العربية من ظلم اوربا وقد وجدتها سلمية الجسم والروح لذلك استطاع العرب ان يستفيدوا من من ابناء المغرب العربي فيؤلفوا منهم فرقاً وكتائب ذات خصائص حربية ممتازة ويدمجوها في جيوشهم ويفتحوا بهم كافة الاقطار الساحلية كما استطاعوا ان يحتلوا بهم اسبانيا ويصلوا حتى قلب فرانسا .

وان الدين الاسلامي دين العرب قد شق طريقه حالا الى نفوس السكان لان التقارب العنصري بين العرب الفاتحين واحفاد الحميريين كان قوياً سهل كل امتزاج بين القسمين كما حصل ذلك عند مجيء العرب الى قرطاجنة الا ان الحركة الاسلامية امتازت عن سابقتها بانها وحدت المشرق العربي بمغربه بفترة وجيزة وكونت منهما دولة واحدة تخضع لمركز واحد وذات نظام واحد .

الا ان هذه الوحدة السياسية بين عرب المشرق والمغرب التي تمت على يد الجيوش الاسلامية لم تدم مع الاسف طويلا فلم يمض عليها

نصف قرن او ما يزيد قليلا حتى رأينا الامة العربية تنشطر سياسياً الى شطرين فتكون خلافتين الاولى في الشرق «بغداد» والثانية في الاندلس وقد مالت شمال افريقيا بطبيعة موقعها والخصائص الاخرى الى مركز الاندلس وحصلت الهوة الكبيرة ثانية بين المشرق العربي والمغرب ولا تزال الهوة قائمة حتى اليوم. اما من الوجهة الاجتماعية والثقافية والدينية، فاستمرت الوحدة العربية طويلا، وان ظهور بعض التباين في الانتاج الثقافي والادبي لم يزد الامة العربية الا ثروة وقوة انسجام لان الوحدة الدينية كانت قوية في شمال افريقيا. فعلى الرغم من اختلاف القبائل القادمة من الشرق وطبعها في طابع العرب الحجازيين وانتساب سكان شمال افريقيا الى اليمانيين فان الانسجام تم بين القبائل العربية في هذا القسم في فترة قصيرة وكان الانسجام محكما والوحدة متينة.

ولقد حصل تطاحن سياسي وعسكري بين الخلافتين العربيتين الا ان هذا التطاحن لم يرجع للامة العربية وحدتها السياسية ثانية، وقد خابت مساعي كل من الخلافتين في الحصول على الوحدة اذ لم تستطع كل واحدة منهما اخضاع الثانية لنفوذها وسلطانها رغم حاجة الامة العربية الى ذلك فاستمر الانفصال السياسي بين القسمين وانشغل كل قسم بمشاكله الخاصة وقابل مصائبه لوحده فنتج عن ذلك ان تفرقت

الامة الى دويلات صغيرة عاشت كل منها لوحدها وفي نزاع داخلي وخارجي مستمر .

ووقعت حوادث مهمة سهلت امر التعاون بين الدويلات العربية او بين القسم الاكبر منها ، الا ان هذه الحوادث رغم جسامتها وقوة تأثيرها لم تستطع ايضا توحيد الامة العربية فلا الحرب الصليبية ولا الدوله الفاطمية ولا الدولة العثمانية استطاعت ايجاد الوحدة السياسية السابقة او ما يشابها .

ومع ان فترة الانقسام السياسي كانت طويلة بقيت عناصر الامة العربية وسجاياها من عادات ودين واعتقاد ثابتة في القسمين رغم كل النوائب التي نزلت بالعرب واحتفظ بها الشرق العربي كما احتفظ بها المغرب العربي.

بعد هذه النظرة التاريخية ننتقل بكم ايها السادة الى صراع الامة العربية لاسيما المغرب مع الاستعمار الاوربي ولا بأس من ان ننظر الى الامة العربية كوحدة ، لان قسميها الشرقي والغربي ابتليا بالاستعمار في وقت واحد .

بدأ الاستعمار الاوربي في البلاد العربية في النصف الاول من القرن التاسع عشر فدخل هذا الاستعمار بلادنا العربية من جهتين ، اخترق الجزيرة العربية من خليج عدن ١٨٣٨

دخل شمال افريقيا من الجزائر ١٨٣٠

دخلت انكلترا عدن بطريقة انكليزية فما كادت تثبت اقدامها في هذا الميناء الهام حتى اخذت تتوسع وتتوغل في البلاد العربية المجاورة تدوسها وتخضعها لسلطانها، وقدمت فرانسا الى المغرب العربي من الجزائر بالطريقة الافرنسية المعلومة، فجرت في توسيع مستعمراتها وتثبيت اقدامها في خطة شبيهة بالخطة الانكليزية، فطرق الاستعمار اصبحت معلومة بعد ان اشبعت بحثاً وجربت في اكثر انحاء العالم. فالدولة المستعمرة تتوصل للوصول لغاياتها بحجج واهية واعذار ضعيفة كالدفاع عن حرية التجارة او المحافظة على مصالح الدولة او الدفاع عن حرية الاديان والمعتقدات لا سيما التي تدين بها الدول المستعمرة او حفظ حقوق الاقليات او تطبيق النظم الانسانية والبشرية، فاذا عجزت في كل ذلك عن تحقيق هدفها الاستعماري لجأت الى الوسيلة الاخرى وهي التدخل في الامور الداخلية للبلاد المجاورة محافظة على النظام او لحماية الحدود او للسهر على مصالح الدولة او لحفظ كرامة الدولة. والبلاد العربية طبقت عليها كل هذه الطرق واتحل لاستعمارها كل هذه الاساليب المضحكة فقد استعملت انكلترا وفرنسا وبقية الدول المستعمرة الاخرى ذلك وفقاً لخططها وظروفها الخاصة اثناء قيامها بالغزو لوطننا العربي.

والاستعمار الاوربي اختلف في اشكاله والوانه بالنسبة لطباع وخلق الدولة المستعمرة او بالنسبة للمقاومة المحلية التي ترغم الاستعمار

في كثير من الاحيان على تغيير خططه او تبديل وسائله واحياناً بالنسبة للظروف الدولية التي تحيط به.

فمقاومة الامة العربية للاستعمار كانت شديدة في بعض المناطق، رخوة في المناطق الاخرى، ثائرة في بعض الظروف، هادئة في الظروف الاخرى، ولكن اهم لوم يوجه الى هذه المقاومة العربية هو عدم توحيد جبهة موحدة ضد الاستعمار فكما انه لم تستطع الامة العربية ان توحد الجبهة الموحدة لمقاومة الصليبيين او المغول او الاسبان او الاتراك، فكذلك لم يسع العرب بقوة الى توحيد الجبهة لمقاومة هذه الاستعمارات المختلفة مع اني لا انكر ان الاستعمار يملك من الوسائل المادية والادبية ما يمكنه من الضغط الكبير على الجبهة العربية الا ان ذلك ينفي عن قيادة الامة العربية انها تسير على ضلال في كفاحها القومي وخطواتها السياسية، واعني بالقيادة مجموع الطبقة المثقفة الواعية في الامة تلك الطبقة التي تعد المسؤول الاول عن سير الامة العربية واعطائها الاتجاه الصحيح.

فاهم دعامة يرتكز عليها الاستعمار هي تمزيق البلاد ووضع الحواجز المختلفة فيما بينها حتى ولو كانت كلها تابعة لدولة واحدة من دول لاستعمار. فهذا مافعلته فرانسا في شمالي افريقيا. فبعد ان تهيأ لها اخضاع كافة المغرب العربي لسلطانها وضعت الحواجز الجمركية بين تونس

والجزائر ومراكش ، واتخذت جوازات السفر والتأشيرات بحيث لا يمكن عبر الحدود بدونها ، كما انها سنت نظماً متباينة شكلياً لتبرير وجود الحواجز والتأشيرات ، فالجزائر محتلة وتابعة لفرانسا رأساً ، وتونس محمية تحت الانتداب ، ومراكش سلطنة مرتبطة بمعاهده ، لذلك لا يجوز المزج بين هذه الاقسام حرمة للقوانين !..

ومثل هذا صنعته انكلترا في الشرق العربي بين الاقسام العربية الخاضعة لسلطانها ، فقد وضعت الحواجز ايضاً وعززتها بقوانين ونظم خاصة وبقيت قائمة حتى الان رغم استقلال بعض الدول ووجود الجامعة العربية !..

وقد يلاقي هذا النظام قبولا في البلاد التي لم يبلغ فيها الوعي القومي الصحيح الدرجة المرضية كما نشاهد ذلك في بلادنا العربية فكثير من الناس من يتمتع بفضل هذه الحواجز بمركز الامارة والوزارة والادارة ، وقد خلقت هذه التدابير طبقة من الناس ترى حياتها الخاصة قائمة على وجود هذه الحواجز التي وضعها المستعمر وغذاها ، ولا يزال ساهراً على بقائها . والخطة ليس وضع الحواجز وانما تكوين عقلية محلية ترى ان وجود هذه الحواجز ضروري لكيان الدولة التي تعيش في ظلها ، ولذلك فهي لا تجرأ على رفعها رغم ضعف سلطة الاجنبي فيها .

فهذه الحواجز عطلت وتعطل نمو الفكرة القومية اذ كيف يستطيع العرب ان يعرفوا بلادهم اذ ذلك كشرط اول لتكوين قوميتهم اذا كان لا يفسح لهم مجال التعرف على اقسامها المهمة وفي مقدمتها المغرب العربي .

اود ان اذكر لكم قبل وصفي لزيارتي شمالي افريقيا ما كنت اتصوره عن هذا القسم العربي مع اننا نشأنا في مدارس وطنية وتحت ظل حكم وطني و كنا ندرس التاريخ العربي والجغرافية العربية بصورة مرضية كما اني تعرفت منذ الصغر على بعض اخواننا من المغرب العربي، فكنت اتصور افريقيا الشمالية اشبه بالصحارى والقفار ليس فيها ماء كاف ولا مدنية ولا عمران ، كما ان حرها شديد لا يطاق واهلها خليط من عناصر مختلفة وهم اشبه بالاقوام المسلمة منها الى العربية اي ان رابطة الدم بيننا وبينهم ضعيفة ولكن هذه التصورات زالت منذ اليوم الاول الذي وصلنا فيه هذه البقعة العربية كما اشرت اليه لان معلوماتنا عن هذا القسم العربي مستمدة مما ينشره المستعمر عنها فهو يعطينا الصورة التي يرغبها فيها عن هذا المغرب العربي واخذت اخجل من ذكرها وسر ذلك معلوم.

ولم نكن نرغب في النزهة والسياحة عندما عزمنا على زيارة المغرب العربي عام ١٩٣٨ اذ ان هذه التصورات عن افريقيا الشمالية لا تثير الرغبة في زيارتها لا سيما في فصل الصيف حيث فيه الفرصة الكبيرة

للمدارس ، لكن الحس القومي هو الذي ساقنا الى ذلك ، فقد كنا في في اوروبا نخجل الدخول في البحث عن شمال افريقيا بينا نرى الاوروبيين يعرفون عنها اكثر منا .

اذ كيف يليق بالقومي العربي ان لا يعرف عن بلاده التي يريد وحدتها بقدرما يعرف عنها الاوربي البعيد عنها.

وبعد ان عزمنا السفر صادفنا اول عقبة في هذه الطريق، ومن قبل حكومتنا ، لاننا كنا آنذاك طلاب بعثة حكومية فلم تساعدنا المعارف بتحويل راتبنا لخارج المانيا الا بعد جهود كبيرة بذلتها وزارة المعارف الالمانية لذلك لانها كانت تقوم بامر الطلاب الرسميين بدلا من المفوضية العراقية في برلين .

وما كدنا نذلل هذه العقبة الصعبة حتى اصطدمنا بالعقبة الثانية ، وهي رفض ايطاليا السماح لنا بدخول طرابلس . (٢٤) فقد كانت الحكومة الايطالية تماطلنا وتحاول اقناعنا بالعدول عن السفر الى طرابلس الغرب والاكتفاء بايطاليا فقط ولم نكن نفهم سر هذه المماطلة والممانعة حتى وطأت اقدامنا ارض طرابلس العربية .

وجدنا البلاد مزرعة للطليان فكل شيء فيها ملك للطليان ، فالارض الخصبة تؤخذ من العربي وتعطي للعائلات الايطالية ، والتجارة نهب بين الطليان واليهود ولا يسمح لعربي ان يقوم بعملية تصدير او استيراد بل

عليه ان يكون فقط مستهلكاً صغيراً وتحرم عليه بيع كثير من الحاجيات كالتبغ والطوابع وبعض المصنوعات الاوربية .

ولا يسمح للعربي ان يدخل الدرجة الاولى سواء كان في المقهى او المسبح او القطار او السينما او سيارة النقل او ما اشبه ذلك باللباس العربي . ان الطليان يجبرون حتى المحكمة الشرعية لان تضع اشارة الصليب على اختامها ، اما الوظائف الادارية فهي بعيدة عن العرب ، وما يشاع عن المدرسة الاسلامية العليا في طرابلس ، هو ان جميع الطلاب من الطليان المستشرقين ، اما معلمو العربية والدين فقط فهم من العرب .

وخطة سياسة الافناء بادية في طرابلس في كل شيء فالطليان يتحرشون بالعرب ويهينونهم ليقابلوهم بالمثل فيكون نصيب العرب السجن والنفي والتشريد واحياناً القتل ولهذا فلا يعجب الانسان اذا مارأى ان نفوس طرابلس قد هبطت من مليون ونصف قبل احتلال ايطاليا لها الى ثلاثة ارباع المليون حتى عام ١٩٣٨ اي الى النصف . (٢٥) ولا يوجد في طرابلس اي حزب سياسي عربي وقد تكون اقوى جمعية فيها هي جمعية صباغي الاحذية !.. لان الحاجة دفعتهم للدفاع عن كرامتهم العربية لانهم اكثر تلامساً بالطليان من غيرهم لا سيما الضباط الذين يصبغون احذيتهم ويتقصدون الاساءة اليهم .

لقد حدثنا مفتي طرابلس (٢٦) عندما خلا الجو معتذراً عن عمله

الذي قام به عند ما سلم السيف لموسوليني وتسميته له بحامي الاسلام من انه لا يمكن لاحد في طرابلس ان يعاكس اصغر ضابط ايطالي فيما يريده، فكيف اذن بموسوليني ؟.. وقال كيف نستطيع نحن الطرابلسين ان ان نظهر رأينا ونحن هنا سجناء لا يخرج منا احد ولا يأتينا احد، فاخواننا العرب في المشرق قد هملونا فلا صحافي يزور بلادنا ولا بعثة تحاول الاقتراب منا ولا كاتب يريد ان يعرف ما نقاسيه وما يجري عندنا وكل ما يفعلونه هو لومنا وتأنيبا ولكن عن بعد .

فبدون تقديم اية مساعدة سياسية واقتصادية او اجتماعية من القسم العربي في الشرق لا يمكن لطرابلس ان تحافظ على نفسها امام هذه الوسائل الجهنمية التي تستعملها الحكومة الايطالية للقضاء علينا وافناء كافة السكان العربي ليحولوا هذا القطر العربي الى ارض ايطالية .

فايطاليا قد سارت على خطة استعمارية جديدة وقد وجهت همها لا لحكم هذه الارض واستثمار خيراتها بل لدمجها ارضاً وشعباً في الدولة الايطاليه . والدول الاوربية وافقت على ذلك واستحسنت عمل الحكومة الايجالية فعلى العرب ان يسرعوا بانقاذنا واذا تأخر الزمن فسوف نكون ضحية القرن العشرين وستكون نتيجة حكم ايطاليا لطرابلس هو تحويل طرابلس الى اندلس ثانية وسوف يندم العرب على اهمالهم ولات ساعة مندم .

وكنا نكاد لا نصدق انه يمكن لدولة في القرن العشرين ان تقدم على ان تقوم بما قامت به ايطاليا في طرابلس ، وعلى مسمع من العرب وفي وسط الوطن العربي بينما مجموع الامة العربية يفوق عدد الطليان. فبعد ان ودعنا طرابلس بقلوبنا وهي مملوءة الماً لما شاهدنا فيها وما سمعناه من اخواننا ابناء هذا القطر الشهيد .

استقبلنا تونس في يوم حدادها الاخير حيث ان حركة ابريل (اي الثوره الشعبية التي قام بها الحزب الحر الدستوري (٢٧) ساقت الالوف من شباب تونس ورجالها الى السجون ، وضرب الحصار على المدينة .

وقد شاهدنا لوناً آخر من الاستعمار وهو الاستعمار الاحمر ان استطعنا ان نصف الاستعمار الايطالي بالاسود وقد حاولنا زيارة السجن لنتعرف على بعض رجالات تونس فلم ننجح في مسعانا وقد جبنا اكثر مدن تونس فرأينا وجهاً عربياً غير وجه طرابلس ، وجهاً مملوءاً بالقوة والنشاط وقلباً ينبض وعقلا يفكر فتونس هي اسبق الاقطار المغربية في الثقافة واكثرها وعياً قومياً ورغم قلة عدد نفوسها بالنسبة للجزائر ومراكش ، فهي تتمتع بمركز الزعامة الفكرية والقومية مع ان امكانيات تونس محدودة ، فهي سورية المغرب من اكثر الوجوه لا سيما من وجهة النفوس والثقافة والثروة الاقتصادية ، ففيها ظهر الصراع العربي

عنيفا وطبع بطابع عربي نقي .

ولتونس حكومة محلية ورئيس دولة ، هو الباي الذي لا يملك من السلطة المحلية الا جزءاً مما يمن به عليه المستشار الافرنسي . اما دوائر الحكومة فهي تابعة في عملها الجوهري للافرنسيين واكثر موظفيها الرئيسيين منهم .

وفرنسا تحاول عزل تونس عن بقية المغرب العربي حتى تحد من تأثيرها الثقافي والقومي ، الا ان الروح العربية تظهر جلية في تونس وتخترق الحصار الافرنسي العنيف . والجامع الزيتونة الذي يشبه الازهر في غايته وطريقته فضل كبير على الثقافة الاسلامية العربية في تونس ، فهذه المدرسة تلقح الاجيال بالفكرة الاسلامية وتثبت اللغة العربية الضرورية لبقاء الوعي القومي والطابع الاسلامي كما ان كثيراً من الطلاب العرب من بقية انحاء المغرب العربي يأمون الزيتونة للعلم والثقافة .

ولم تكتف تونس بمدرسة الزيتونة الاسلامية بل اسست مدارس اهلية حديثة على نمط المدارس الاوربية اهمها مدرسة (الصادقية) لتزويد الطلاب بالمعلومات الحديثة الضرورية لدخول الجامعات فهي بذلك تعاون الزيتونة وترسل كثيراً من خريجها الى اوربا وخاصة باريس لاتمام الدراسة الجامعية فيها والروح العربية الاسلامية هي التي تطغى حتى على الشباب الذين قضوا ردحا من زمنهم في اوربا واتقنو العلم واللغات

الاوربية فهم لا يودون فقدان طابعهم العربي كي لا يضيعوا وتمحى شخصيتهم وقد بقوا بهذه المحافظة اقوياء صامدين في وجه فرنسا رغم كل طرق استعمارها القديمة والحديثة . وفي تونس حركة سياسية مبنية على تنظيم حزبي والحزب الذي يقود الحركة الوطنية هو الحزب الدستوري(٢٨) فهذا الذي عرف تونس الى البلاد العربية بهجرة رئيسه وبعض اعضائه كما ان فروعه الجديدة هي التي قادت حركة المقاومة ضد مشاريع فرنسا الاستعمارية الجديدة وقد دخل المعركة القوية التي ادت الى سقوط كثير من الشهداء واعتقال رؤساء الحزب من قبل السلطة الافرنسية وفرض حالة الحصار على العاصمة .

وقبل مغادرة تونس تعرفنا على احد رجالات الجزائر الوطنيين ، وهو الاستاذ ابن باديس رئيس جمعية العلماء في الجزائر ، وقد امتازت شخصيته بالطابع الاسلامي العربي ، وبالجرأة النادرة ، فكانت لنا فرصة سعيدة اخذنا فيها بعض المعلومات عن الجزائر قبل سفرنا اليها وكم كانت دهشتنا عندما اخبرنا ان الاستعمار الافرنسي في تونس يعد رحمة بالنسبة للاستعمار الفرنسي في الجزائر فعلاقة فرانسا بالجزائر تختلف عن علاقة فرانسا بأي قطر عربي آخر في شمال افريقيا ، وحالة الجزائر السياسية ، تختلف عن كل الاصطلاحات السياسية فلا هي منتدبة او مرتبطة بمعاهدة ولا ممثلة ولا تحت الحماية او الاستعمار وانما هي اكثر

من هذا كله فقد انما تريد دمج الجزائر بها وجعلها قطعة ارض فرنسية، وكل القوانين المحلية التي سنت وتسن في الجزائر تهدف الى هذه الغاية، ولذلك فالجزائر ملحقة بوزارة الداخلية الافرنسية كأنها مقاطعة افرنسية بحتة، كمنطقة مرسيليا وبوردو وغيرها.

بعد هذا الوصف المؤلم اصبحت الرغبة شديدة في الاسراع بالسفر الى الجزائر لنرى ما يقاسيه اخواننا العرب فيها.

وبعد صعوبات رسمية ومالية وصلنا الجزائر ودخلنا منطقة قسطنطينية حيث يقيم اكثر زعماء الجزائر، ومنهم الشيخ ابن باديس فاستقبلنا ورحب بنا ولم نكن نعلم انه محاط في كل حركاته بالجواسيس والشرطة السرية، لان فرنسا كانت تخشى كل حركة عربية اسلامية في الجزائر، فهي تريد ان تعزل الجزائر عن جسم الامة العربية، ولذلك فلا تتساهل في العقاب، ولا ترحم في الجزاء، والحكام الافرنسيون يفقدون صوابهم اذا ماشعروا ان احد رجال الجزائر حاول الاتصال بالعرب الآخرين، حتى لو كانوا في تونس او مراكش، وهم لا يتورعون من ان ينزلوا اقصى العقاب الشديد لمن يقوم بمثل هذه المحاولة وهذا ما حدا بابن جلول احد زعماء الجزائر والذي ذاع صيته في الاقطار العربية بعد ثورة ١٩٣٤ ضد اليهود من انه سيكون هتلر العرب، بان يرفض مقابلتنا خوفاً من جزاء الحكام الافرنسيين كما علل ذلك بعض انصاره واتباعه. اما

ابن باديس فقد قابلنا واوضح لنا كل شيء في القسطنطينية وهو عالم من ان الافرنسيين سوف لايسكتون على عمله هذا .

وبعد زيارة بعض المدن المهمة في الجزائر مثل القسطنطينية والجزائر نفسها ووهران وتلمسان ، رأينا بأم اعيننا ما يعانيه سكان البلاد من الجور والاضطهاد والفقر والجهل ففرنسا تحارب كل شيء عربي واسلامي في الجزائر فكثير من الجوامع التي بنيت باموال المسلمين اتخذت كنائس بعد اتمامها وابدل الهلال فيها بالصليب . وكثير من المدارس الدينية وحتى الابتدائية اقفلت بأمر السلطات المحلية او اتخذت مقراً لبعض الدوائر الحكومية (٢٩) .

واللغة العربية لاتدرس في المدارس لان خطة فرانسا هي القضاء عليها وقد كتب لها التوفيق الى حد كبير حتى اننا شاهدنا بعض العمال في المحطة لايستطيعون نطق جملة عربية صحيحة دون ان تكون ممزوجة بكلمات افرنسية . فالقلوب التي تنبض عربية ولكن الالسنة التي تنطق رطناء مرتبكة وكم يتألم العربي عندما يشاهد البسطاء من الناس من الجزائريين يبكون احياناً لانهم لايستطيعون التعبير بالعربية . والسر في ذلك معلوم فالمدارس العربية ممنوعة او محاربة بقسوة اما اللغة العربية فليس لها محل في برنامج المدارس في حين ان المدارس الاجنبية منتشرة بكثرة في الجزائر لان الجزائر قطعة من فرانسا . اما الحياة العامة فعليها

الطابع الاوربي ، فقد تجد مثلا في وهران اهم الشوارع العامرة تموج بالمتجولين من الافرنسيين والافرنسيات ومن النادر ان تجد بينهم نفراً من العرب، فاذا ماتجولت مساء في هذه الشوارع شعرت كأنك تتجول في باريس في الشوارع الكبيرة فلا تسمع الا اللغة الافرنسية ولا ترى الا الوجوه الافرنسية والزي الافرنسي .

وفرانسا لها خطة محكمة في الجزائر فهي ترسل اليها موجات من الافرنسيين للسكنى والاستيطان ، وكذلك تشجع بعض العناصر الاوربية لا سيما الاسبانية للهجرة اليها . والاحصاء الاتي يظهر لنا بجلاء تقدم الهجرة الافرنسية الى هذه القطعة العربية ذات التاريخ الحافل والكفاح القومي العنيف .

عندما دخلت فرانسا الجزائر كان فيها (٣٠٠٠) اوربي منهم (٦٠٠) فرنسياً ، ولم تمض عليها ثلاثون عاماً حتى بلغ عدد الاوربيين (١٩٢) الفاً منهم (١١٢) الف افرنسي .

اما اليوم فيقدر عدد الاوربيين في الجزائر مليون او بما يزيد . وقوانين الجزائر تسهل الهجرة والاستيطان فكل اوربي مثلا يقيم ثلاث سنوات في الجزائر يحق له اخذ الجنسية الافرنسية ويعتبر كأنه افرنسي فيستطيع امتلاك الارض وتعاطي الاعمال التجارية والصناعية بحرية وبضرائب قليلة حتى ان سجل الاحصاء الاخير يظهر ان الذين يملكون

ارضاً الآن من العرب لا يزيد عددهم عن مليون نسمة في تسعة ملايين، اما الآخرون فيشتغل اكثرهم عند اصحاب الاملاك الاوربيين، ومعظمهم من الفرنسيين واليهود المتجنسين بالجنسية الافرنسية كفلاحين صغار والباقون من العمال الذين يضطرون للهجرة الى جنوب فرنسا ليشتغلوا عمالا او خدماً في المدن الافرنسية لاسيما في الموانىء. ومن زار مرسيليا ورأى حالة ابناء الجزائر فيها يستطيع ان يتصور ما يعانيه سكان الجزائر من الفقر والالام. وكل هذا الضغط لم يستطع قتل الشعور الاسلامي العربي في الجزائر كما ان ابناء الجزائر استطاعوا تنظيم صفوفهم فقد كونوا جمعية العلماء التي اخذت على عاتقها احياء اللغة العربية ونشر تعاليم الدين الاسلامي اما بواسطة الجوامع واما بواسطة المدارس الليلية فهم يأخذون طلاب وطالبات المدارس خارج الدوام الرسمي ويدرسونهم اللغة العربية وبعض الاناشيد الوطنية واصول الدين.

واستطاع الحاج المصالي (٣٠) ان ينظم حركة العمال ويوجد منهم جبهة شعبية تطالب بحقوق العامل العربي (الجزائري) وقد قاسى الاضطهاد والسجن والتعذيب ولكنه ما زال سائراً على خطته متحملا كل التبعات بصبر وحزم، ومهما حاولت فرنسا فصل الجزائر عن بقية اقسام المغرب العربي فسوف لا تطيع فهي فلسطين المغرب العربي وستبقى عربية كأختها فلسطين المشرق ما دامت محاطة بتونس ومراكش وما دام

الشعور العربي قوياً في نفوس ابنائها ، وروح الثورة الجزائرية هي السائدة رغم تماثيل جان دارك والقواد الافرنسيين الكثيرة التي اقامتها فرانسا في بلاد الجزائر .

يعجب المرء عندما يلاحظ فرانسا التي قست في حكمها في تونس وطغت في تصرفها في الجزائر ان تظهر بمظهر الدولة السياسية ذات الهدوء النسبي بمراكش (٣١) والسر في هذا العجب هو وجود عاملين مهيمنين في مراكش ، الاول هو ان فرانسا لم تستطع اخضاع هذا القطر العربي الذي اشتهر بعنفه في القتال وصبره على الشدائد الا بالحيلة السياسية وهي عقد معاهدة معه واعترافها بالاستقلال الذاتي له ، اما العامل الثاني فهو تدخل الدول لاسيما الكبيرة منها في قضية مراكش ، فهذه القضية كانت موضع اهتمام السياسة العالمية وكادت تكون قضية مراكش سبباً مباشراً في اعلان الحرب العالمية الاولى . وفرانسا صرفت جهوداً سياسية كبيرة لربح معركة مراكش السياسية فقد اقنعت (٣٢) المانيا قبل الحرب الماضية بالتنازل عن مراكش وبالاحرى باطلاق يدها فيها بان اعطتها بعض الاراضي بافريقيا ومقادير من المال وقد ارضت انكلترا بان تنازلت فرانسا عن كل مطمع او تدخل في مصر لقاء اعتراف انكلترا لها بهذه السيطرة في مراكش واضطرت اخيراً لارضاء اسبانيا وذلك باحتلالها جزء مهم لها في مراكش وهو القسم المقابل لاسبانيا (الريف) لقاء

سكوتها ، اما الدول الاخرى التي ليست لها علاقة مباشرة بمراكش وليس لها من القوة ما تهدد به فرانسا او تساوم به على احتلال هذه الارض الغنية فقد اكتفت بان جعلت مدينة طنجة منطقة دولية تشترك اكثر الدول الكبرى في ادارتها وتكون ميناء مفتوحة للجميع. وبهذه الجهود السياسية والدبلوماسية استطاعت فرانسا ان تثبت اقدامها في مراكش وان تستثمر ارضها وتستغل كل قواها لاسيما البشرية منها فمراكش مهمة لفرنسا لانها تحد بالجزائر ولانها تقع على بحرين عالميين مهمين كما انها غنية بارضها فتعد مراكش لها كالهند (٣٣) لانكلترا زد على ذلك ان مراكش غنية بالرجال الذين اشتهروا بالشجاعة والاقدام حتى اصبحوا مضرب الامثال ولهم الفضل الكبير في تسجيل الانتصارات للجيوش الافرنسية في كافة الحروب ، ففرانسا كانت ترسل الفرق المراكشية في الحروب العالمية الى اخطر المواقع الحربية وهم وحدهم الذين كانوا يرهبون الاعداء حتى اصبح الالمان يصفونهم بانهم (اي المراكشيين) لايفهمون الموت ولا يرهبونه .

ورغم تودد فرانسا لسلطان مراكش واظهار العطف عليه وعلى بعض العناصر الموالية في بلاده بقيت غير مطمئنة من العرب في مراكش وجربت طريقتها الاستعمارية المعلومة ولكن بخطوات ، فهي قد قضت تدريجياً على كل اثر للاستقلال في مراكش واستطاعت ان تفصل بينها

وبين اخواتها الاقطار العربية الاخرى في شمال افريقيا لاسيما في الجزائر وتونس كما انها كانت قاسية جداً في معاملة الوطنيين (٣٤) من العرب ولا تتوانى في انزال اشد العقوبات بكل عربي تحدثه نفسه بمطالبة الاستقلال او الوحدة سواء كانت الوحدة الصغيرة اي وحدة القطر المراكشي او الوحدة الثانية اي وحدة شمال افريقيا . حتى ان الحكام الافرنسيين نفوا كثيراً من ابناء العرب الابرار الى الصحراء دون ان يراعوا حرمة بشرية او يخشوا تدخلا سياسياً . ولكن كل هذه القسوة لم ترغم العرب على الخضوع للسلطة الافرنسية فابناء مراكش يعتزون بعروبتهم واسلامهم ويفخرون بانهم استطاعوا تحت ظل الراية العربية اخضاع اسبانيا واحتلال قسم من فرانسا نفسها واستطاعوا حتى في ايام ضعفهم ان يوقفوا توغل الاسبان ويصدوا حملاتهم العنيفة عندما استطاع الاسبان طرد العرب من الاندلس ولم يخضعوا حتى للدولة العثمانية التي اخضعت اكثر اقسام الوطن العربي . فهذه البطولة والتاريخ الحافل هو الذي يدفع ابناء مراكش رغم تساهل فرنسا النسبي معهم للمطالبة بالاستقلال التام ومد يد المساعدة لبقية اقسام المغرب العربي . ومراكش لا تعتز بقوتها العسكرية وشجاعة ابنائها فقط بل تفخر بخصب ارضها وثروة جبالها وسهولها وبمعالم العمران القديم والحديث الذي ساهمت في ايجاده وطبعه بالطابع المغربي الجميل اما النهضة العلمية فهي بدرجة مرضية

رغم مقاومة فرانسا لها. و كل هذه الصفات تشجع العربي في مراكش لان يثابر على المطالبة بالاستقلال ويستطيع تحمل مسؤولية الوحدة المغربية .

اما نصيب الريف اي القسم الذي احتلته اسبانيا واقتطعته عن جسم الوطن المراكشي فلم يكن بأحسن من نصيب الاقسام الاخرى لان الدولتين المستعمرتين تنتميان الى اصل لاتيني واحد ولهذا فهما تشتركان في اكثر الصفات الخلقية لاسيما الحقد الديني ضد المسلمين زد على ذلك فان مصلحة الاستعمار المشتركة ترغمهما رغم التزاحم والتنافس بينهما الى التعاون التام ضد كل حركة تحريرية في البلاد العربية وهذا ما حدا بفرانسا لان تقدم كل مساعدة لاسبانيا للقضاء على حركة عبد الكريم (٣٥) الريفي التي كادت ان تقضي على نفوذ وسلطة اسبانيا في الريف وترجع الاسبان الى ما وراء جبل طارق ولكن فرانسا هي التي انقذت اسبانيا وشلت حركة عبد الكريم واخيراً نفته الى احدى جزرها في المحيط الاطلسي .

ومقدار ضغط اسبانيا على الريف يختلف باختلاف قوتها وضعفها ففي الوقت الذي تكون قوية تظهر حقدها الشديد الذي أكل قلبها منذ ايام فتح الاندلس فبدأت كنيستها تشن حرباً صليبية ثانية ولكن بصورة انتقام على ابناء العرب المسلمين . اما في وقت الضعف فتظهر انها لاتزال

تعترف للعرب بفضلهم العلمي والعمراني على بلادها وان الكثيرين من رجالها ينتمون الى اصل عربي وما شابه ذلك من الاقوال التي لا يقصد منها الا كسب الود والوقت والمرور بالعاصفة العالمية بسلام واطمئنان. والعرب في الريف يعرفون ذلك ولكن امكانياتهم قليلة فارضهم قاحلة والصلة بينهم وبين اقسام المغرب العربي ضعيفة او مقطوعة وفرانسا لاتشجعهم بل لاتسمح بذلك .

وقد خاتهم عندما اوشكوا ان يخلصوا بلادهم من الاستعمار . اما مساعدات الدول العربية لاسيما الشرقية منها فهي معدومة فلم تقم هذه الدول من قبل ، لاسيما بعد الحرب العامة الاولى بأية محاولة للاتصال الرسمي بالاقطار العربية كما تفعل الدول الصغيرة مع بني جنسها في الاقسام الخاضعة لدول اخرى ولذا فان عرب المغرب يلومون عرب المشرق فان ابناء عرب المشرق رغم استطاعتهم ايجاد الصلة فيما بينهم وتكوينهم دولا لها صفة عالمية محترمة لايبذلون جهداً يذكر من اجل عرب المغرب فاذا بقيت الدول العربية في الشرق العربي لاتعتني بعرب المغرب، فسوف لاتسجل اي نصر محسوس في سياسة الامة العربية وحتى في سياستها المحلية الضيقة . وكل ما يطلبه عرب المغرب هو كثرة زيارة اخوانهم لهم ليروا بعينهم قوة المغرب وتأثيره على سير الامة العربية وان لاينسوا في كفاحهم السياسي المغرب العربي الذي يعد الجناح الايسر للامة العربية

فالامة لاتستطيع ان تقوم بواجبها القومي وتساعداجزاءها على النهوض والتخلص من نير الاستعمار مالم تخطو الخطوة الاولى وهو التعرف التام على حالة الاقسام العربية فهذا التعرف هو الذي يوجد الوعي القومي ويدفع الشعب العربي الى الاهتمام بقضاياه الحيوية وهذا مايطلبه عرب المغرب من اخوانهم عرب المشرق الذين اصبحوا بحالة سياسية تمكنهم من اداء هذا الواجب فالقومي لايستطيع ان يحمل هذا اللقب مالم يعرف كافة اجزاءوخصائص الامة التي ينتمي اليها،والحكومة القوميةمسؤولة عن هذه الخطوة الاولى في بناء الكيان القومي وهذا الاهمال هو السر في ضعف عقيدتنا القومية الآن .

* * *

ثورة المغرب

في مثل هذا اليوم (٣٦) من عام ١٨٣٠ ارسلت فرنسا حملتها العسكرية المؤلفة من ٧٥ سفينة حربية وسبعة وثلاثين الفاً من الجنود الى بلاد الجزائر فبدأت بذلك معركتنا العربية مع الاستعمار الاوربي .

ورغم مرور اكثر من قرن كامل على هذه المعركة ، وحدوث تطورات عالمية مهمة لانزال نحن العرب في وسط هذه المعركة ولا ندري متى ستنتهي و كيف .

لقد كان شعار الحملة الافرنسية : ان السيف هو القلم الوحيد الذي يخط فيه التاريخ ، والدماء الحمراء هي الحبر الصالح لكتابة هذا التاريخ. لقد كان هذا شعار الاستعمار الاوربي ولا يزال هو نفسه شعاره اليوم. اذ انه في سبيل الحصول على المواد الاولية الضرورية للصناعة الحربية وفي سبيل السيطرة على طرق المواصلات لايهم المستعمرين قتل المئات أو الالوف من ابناء البشر المساكين .

واننا اليوم نجتمع هنا لنذكر هذا اليوم ونتدبر الامر ونبحث سر شقائنا وطرق خلاصنا مما نحن فيه ، فاننا رغم جهادنا المتواصل مدة قرن

لم نحصل على نتيجة ملموسة ولم ننل ما نصبو اليه من عزة قومنا واستقلال بلادنا .

وسر فشلنا في الوصول الى غايتنا رغم تضحية الآلاف من ابنائنا وتحمل الآلام والمصائب اكثر من غيرنا من الامم هو معلوم لدى الكثيرين من ابناء الامم العربية .

فاهم نقطة تنقصنا هي معرفة بلادنا معرفة صحيحة ، واكتشاف نواحي القوة ومواطن الضعف فيها وبدون هذه المعرفة الدقيقة لا يمكننا تسجيل نصر في معاركنا القادمة او تحقيق هدف صغير من اهدافنا القومية .

فلهذا اليوم فائدته ، فهو يذكرنا بواجباتنا ويدفعنا الى التشاور والتعاون لان الامم لا تستخدم ذكريات المصائب التي حلت بها لغايات تأبينية لان الامم مهما صغرت لا تموت فكيف اذن بالامة العربية ذات التاريخ المجيد والحضارة العالمية والرسالة الخالدة . فواجب يوم ٥ حزيران هو تذكير العرب كافة بواجبهم القومي وحملهم على التفكير في طرق الخلاص من الاستعمار سواء كان ذلك بالطرق السلبية ام الايجابية ولكن قبل تقرير الخطة وبدء العمل لا بد لنا من درس دقيق لنواحي القوة في امتنا كي نستفيد منها في كفاحنا القادم ونسير في طريقنا على حساب صحيح خال من التخمينات والخيال الواسع .

انا بحاجة الى استخدام المقاييس العلمية في بحثنا لانها هي المقاييس التي تسود العالم اليوم وهي التي اصبحت تستخدم في كافة نواحي الحياة الجديدة .

عندما كنا في برلين وكانت القضية العربية موضع البحث والنقاش اصطدم رجال العرب هناك بصخرة الجهل عن البلاد العربية بالنسبة للمقاييس الاوربية ففي اثناء النقاش حول اهمية الامة العربية في العالم ومركزها الجغرافي وطبيعة شعبها وصفاته الخاصة به لم يكتف القسم الثاني — اي القسم الاوربي — بالتقديرات بل وجه الى القادة العرب السؤال الآتي : اننا رغم اعترافنا بالنوعية وميزتها لا بد لنا من معرفة الكمية اولا وهي كم تستطيع الامة العربية ان تضع في الميزان الحربي لتنال من الحقوق بقدر ماتساهم به في الحرب وقد جاء السؤال غير واضح طبعاً على الساسة العرب فأدعم بالمثال الآتي المحسوس وهو : ان تركيا تستطيع تجنيد خمسين فرقة عسكرية فكم فرقة عسكرية تجند الامة العربية وهل تستطيع تجهيز ما تجند ام لا ؟

لقد كانت الفرقة العسكرية وحدة القياس عند الرجال العسكريين اما السياسيون والاقتصاديون فانهم ينظرون الى القوة الاقتصادية كمقياس لسياستهم وهي التي تقرر القدرة العسكرية وهذه المعلومات هي التي توجه السياسي وتجعله يستند في بحثه او مطلبه على شيء محسوس وهذا

ما ينقصنا نحن العرب اليوم .

اننا نجهل بلادنا بصورة عامة ونجهل المغرب العربي بصورة خاصة فجهلنا للمغرب هو الذي يضعف الكفاح ويوزع الخطط لاننا نعتقد ان هذا الجزء من بلادنا لايحتوي الا على اراض قاحلة وشعب بعيد عن التطور والتقدم مع ان الواقع عكس ذلك فكل من يزور المغرب يرجع والالم يحز في نفسه مما يشاهد فيه من قسوة وظلم وجور ولكنه رغم ذلك يؤمن بان هذه البلاد العربية الغنية بارضها وسكانها والقوية بعقائدها ورجالها سوف تبقى صامدة امام الاستعمار واساليبه مهما طال الزمن وسوف تنال ما تصبو اليه عاجلا ام آجلا . ايها السيدات والسادة ارجو ان لاتستغربوا اذا ما قلت لكم ان موطن القوة بالنسبة للمقاييس التي ذكرناها موجودة في المغرب العربي بنفس القدر الموجودة فيه في المشرق العربي وتفوق ذلك في بعض النواحي .

فاذا اخذنا بنظر الاعتبار الناحية الستراتيجية وجدنا البحر الابيض المتوسط قد لعب دوراً هاماً في التاريخ في مختلف العصور ولا يزال يلعب الدور نفسه في ايامنا الحاضرة رغم تقدم المدنية وتنوع الاسلحة ووسائل الكفاح فهو لا يزال يكون نقطة الاتصال بين قارات ثلاث — اوربا وآسيا وافريقيا — وهو لذلك حيوي وخطر على اكثر الامم الواقعة على شواطئه ، والدول الكبرى تتسابق للاستيلاء عليه ووضعه

تحت سيطرتها . ففرانسا تريد ان تمسك البحر الابيض بيد قوية لتحمي بذلك شواطئها الجنوبية ولتؤمن طرق المواصلات بينها وبين مستعمراتها في افريقيا وآسيا ، ولنفس الغاية تحاول ايطاليا واسبانيا بسط نفوذهما في هذا البحر . اما انكلترا فلا تستطيع ان تحافظ على امبراطوريتها ما لم تستول على النقاط الستراتيجية الحيوية في هذا البحر .

وامريكا رأت نفسها مهددة بالخطر من قبل الاسلحة الجديدة ولا تستطيع ان تدفع هذا الخطر الا اذا ملكت الساحل المراكشي المقابل لامريكا .

اذا كانت اهمية البحر الابيض المتوسط في السلم والحرب كبيرة جداً فان نصيب المغرب العربي من هذه الاهمية واضح بين ، فبيد المغرب مفتاح البحر في طنجة وسبته وجبل طارق كما ان موانيء المغرب العربي كالجزائر ووهران وبيزرته وطبرق هي نقاط العصب الستراتيجي في هذا البحر .

اما من حيث النفوس و كثافة السكان فالمغرب العربي — ماعدا طرابلس الغرب التي قلت نفوسها الى النصف بسبب الاحتلال الايطالي — كثيف السكان بالنسبه لبقية الاقطار العربية الاخرى فنفوس هذا الجزء العربي تبلغ خمساً وعشرين مليوناً وهذا العدد ضعف مافي الهلال الخصيب بكامله «العراق ، سوريا ، لبنان ، فلسطين ، شرقي الاردن» .

مع العلم ان سكان المغرب محاربون من الدرجة الاولى ويتحملون شظف العيش وقساوة الطبيعة مما يميزهم عن غيرهم في الحرب والمقدرة على العمل في السلم وهم الذين كانوا يخترقون الجبهات الحربية في اوربا ويدافعون عن فرانسا حتى في قلب بلادها ويكونون العمود الفقري للجيش الافرنسي .

وبهذه الجنود استطاع فرانكو ايضاً ان يقهر ابناء بلاده الشيوعيين ويثبت حكمه في اسبانيا ولا يزال يعتمد حتى في حرسه الخاص على العناصر العربية من المغرب لما عرف عنها من بسالة واقدام .

وبهذه القوة البشرية ايضاً استطاعت فرانسا ان تنشيء المعامل الكثيرة في مراكش والجزائر وتونس وتستغل الارض تحرثها وتزرعها وتجني ثمارها وترسلها الى الشعب الافرنسي في فرانسا او تقايض عليها مع الدول الاخرى ، وبها ايضاً استطاعت استثمار بعض المعادن الموجودة في ارض المغرب العربي واستخدمتها في صناعتها الحربية والتجارية .

اما من حيث المنتوجات الزراعية فان المغرب العربي خصب التربة قابل لكافة انواع الزراعة ، تنمو فيه اشجار الفواكه والزيتون وتكثر فيه حقول القمح والشعير وتغطي جباله ووهاده اشجار الكروم الكثيرة العدد وتملأ سهوله المراعي الكثيرة والواحات .

ومنتوج مراكش لوحدها يفوق منتوج الهلال الخصيب بكامله، والمواشي تتناسل هناك بكثرة حتى اصبح منتوج الغنم السنوي في مراكش فقط اكثر من تسعة ملايين رأساً وهذا العدد اكثر مما هو عليه في كافة انحاء الهلال الخصيب .

اما غابات الزيتون المنتشرة في تونس والجزائر ومراكش فهي تدر ثروة كبيرة ورغم فقدان الاحصاء الاقتصادي الصحيح فاننا نرى ان المغرب العربي يستخرج معادن مهمة كثيرة في مقدمتها الفوسفات والفحم الحجري والحديد والرصاص وهذه المعادن ضرورية لكل نمو اقتصادي فلا صناعة بلا معادن ولا يمكن ان تعيش بلاد الآن على الزراعة وحدها.

فالمغرب العربي منسجم من الناحية الاقتصادية فهو يحوي كل المعادن الضرورية لنشوء الصناعة ففيه بالاضافة الى آبار النفط التي اكتشفت اخيراً المعامل الكثيرة القائمة في كافة انحاء المغرب العربي لا سيما في مراكش اذ بلغ عددها حتى سنة ١٩٣٤ « ٨٢٠ » معملا تدر على فرنسا خيرات كثيرة ولا يستفيد منها العربي الا خبزه الشحيح ، ويعمل بأجر يومي ضئيل .

الا ان العرب برعوا في صناعة السجاد وبقوا محافظين على مقدرتهم الفنية وصار انتاجهم السنوي يزداد حتى بلغ في مراكش وحدها « ٢٠ » الف قطعة في السنة او ما يبلغ من ثمانين الف متر مربع ومع ان العرب

حافظوا على هذه الصناعة وبقوا يكتفون بها في ايجاد رزقهم اليومي، لم يرق لفرنسا الا ان حصرت بيع منتوج السجاد بالافرنسيين وحدهم او بواسطة الشركات الافرنسية فقط.

ايها السيدات والسادة ان هذه الثروة المنسجمة من حيث الزراعة والمواد الاولية الضرورية للصناعة هي التي يقدرها الاقتصاديون ويضارب فيها السياسيون وهي التي تخشى من قبل الدول المستعمرة لان مثل هذه البلاد تستطيع ان تستغني عن غيرها اذا نالت حريتها وسيطرت على مرافقها الطبيعية.

زد على ذلك ان القوة البشرية في المغرب لاسيما الناحية العسكرية كبيرة يقدرها كافة العسكريين العالميين فالمغرب يستطيع ان يجند بكل سهولة اكثر من مليون جندي من النوع الممتاز في جنديته لان الفرد العربي هناك يمتاز بالشجاعة والاقدام وهذا العدد يفوق ضعفه من الامم الاخرى التي ابتعدت عن الروح العسكرية او التي دبت الرخاوة فيها.

ان فرنسا وبقية الدول الاوربية تعرف مقدار قوة المغرب تماماً ولا يجهل مقدارها الا ابناء العرب وحدهم ولذلك فلم يستطيعوا الاستفادة منها. وقد رأينا ان من مصلحة الدول المستعمرة ان تتعاون فيما بينها لتبقي المغرب في عزلة عن العالم العربي مفصولا عن جسم الامة العربية وهذه الغاية هي التي تدير السياسة العالمية بالنسبة لقضايا العرب فالدول المستعمرة

تحول حتى دون التبادل التجاري بين الاقطار العربية والمغرب فها اننا نرى ان اهم الاقطار العربية التي تتبادل التجارة مع المغرب مصر والعراق ولكن بصورة ضعيفة ليست لها اية قيمة اقتصادية فان مجموع ما تصدره مصر والعراق الى المغرب لايزيد على مليون فرنك أفرنسي في حين ان الميزانية التجارية للمغرب العربي تفوق العشرة مليارات فرنك سنوياً كما ان فرانسا لا تسمح باستيراد شيء من المغرب حتى لا تحدث الصلة الاقتصادية التي تساعد على نمو الوعي القومي والارتباط التجاري بين الاقطار العربية .

ان الامة العربية بحاجة الى قوة المغرب ولا تستطيع ان تستغني عنها وهذا ما يجب ان يدفع رجالنا القوميين للمطالبة به، فنحن كأمة يكمل بعضنا بعضاً ، فالطبيعة والحياة الاجتماعية والاهداف القومية ترغمنا ان لا نضيع هذه الفرصة اليوم كما اضعناها مدة قرن كامل بل ان نكون جريئين في المطالبة بالمغرب والاعتناء به والسهر على قضاياه ، فالامة العربية لا تستطيع ان تنمو الا اذا اتحد المشرق العربي بالمغرب العربي و كون الامة العربية ذات الانسجام الكامل .

الجزائر والجامعة العربية

من اجمل ساعات حياتي تلك التي قرأت فيها التعليق التالي في احدى الجرائد الالمانية وذلك بمناسبة اذاعة خبر تكوين جامعة الدول العربية :

« ان تكوين جامعة الدول العربية يعد اهم حدث سياسي في الشرق الادنى منذ عشرات السنين ، حيث ان العرب بدأوا يشعرون بحاجتهم الى التكتل والتعاون لحل مشاكلهم المختلفة ولتحقيق اهدافهم القومية العامة » .

وعندما عقد مؤتمر ملوك العرب وامرائهم اجمعت الصحف العالمية في تعليقها على ان هذا العمل هو من نتائج مجهود الجامعة العربية الفتية وهو اعظم حادث جرى تاريخ العرب منذا كثر من الف سنة ، فلأول مرة في تاريخ الامة العربية منذ سقوط بغداد حتى اليوم يعقد اجتماع كبير يضم اكثر ملوك العرب وامرائهم ورؤساء حكوماتهم رغم مابين بعضهم من حزازات عائلية ومطامع شخصية متضاربة ، فهذا الاجتماع يعد بدء عهد جديد في حياة الامة العربية . ومهما كانت نتائج المؤتمر

والمشاكل التي ستعرض على طاولة البحث لا يمكن للعالم الا ان ينتظر اتجاهاً جديداً في الشرق الادنى وهذا الاتجاه سيصبح عاملا فعالا في تغيير كثير من السياسة التقليدية المحلية كما سيكون له ثقله في ميزان السياسة الدولية العالمية .

هذا التحليل السياسي هو الذي اجمعت عليه اكثر الصحف الالمانية الكبرى التي تفخر بانها تعرف سجايا العرب اكثر من غيرها كما انها تفهم قابليات ومواهب الامة العربية فهماً علمياً . وهي محقة في تحليلها لهذه الحوادث ، فان الامة العربية قد بدأت منذ سنتين بوضع الحجر الاساسي لبناء كيان الامة العربية السياسي نظراً للحاجة الكبيرة التي يتطلبها هذا العصر ، وامتنا بحاجة الى كيان سياسي عربي لتستطيع دفع الاخطار المختلفة التي تحيط بها من كل جانب . فالامة العربية قد اتصلت باوربا منذ اكثر من قرن وما زالت تعاني آلام هذا الاتصال لان هذه الصلة باوربا ليست وفق مصلحة الامة العامة ولا تنسجم والفائدة الشعبية ، لان اوربا طغت على بلادنا واحتلت القسم الاكبر منها واخضعته لسيطرتها ونفوذها ولذلك فهي ترغمنا طول هذه الفترة الطويلة على ان نشرب جرعاتها المضعفة المهلكة . وقد اصبح اليوم مقرراً واضحاً بانه لا يمكننا التخلص من اوربا الا اذا استخدمنا في مقاومتها نفس السلاح الذي استخدمته هي ضدنا ، فمن جملة الاسلحة الفتاكة التي استخدمتها اوربا ضد المستعمرات

هي قوة التنظيم السياسي والتعاون التام بين جميع الدول المستعمرة فنحن ينقصنا اذن هذا التنظيم كما ينقصنا التنظيم الاجتماعي والثقافي والاقتصادي ولذلك فأملنا كبير بان تسد جامعة الدول العربية هذا الفراغ في حياة الامة العربية فتوجد للامة المدرسة السياسية الجديدة التي تستطيع ان تخرج لنا جيلا جديداً من السياسيين، يفهم بلادنا العربية ومشاكلها وخصائصها فيستطيع عندئذ توحيد الصفوف لمجابهة الخطر الكبير في المعارك القومية لا سيما في هذه المعركة التي خاضت امتنا غمارها منذ اكثر من ربع قرن.

وقد لا نعجب ان نرى بعض المخلصين من ابناء العرب يوجهون بعض الحملات ضد جامعة الدول العربية ينددون باعمالها وينتقدون خطتها وسيرها في العمل فما يدفعهم الى ذلك الا شعورهم الوطني وحماسهم القومي ورغبتهم في زيادة الانتاج والعمل لان الامة العربية امتازت عن كثير من الامم الاخرى بفعاليتها وسرعة تقدمها فنالت بذلك اعجاب العالم في تاريخها الاول واعترف لها المؤرخون بانها انتجت للعالم دولة وحضارة ومدنية في فترة لم يشهدها التاريخ في غيرها من الامم، وهذه الفعالية المعتمدة على الخصائص العربية هي التي تدفع الكثيرين من مخلصي الامة العربية ان لا يقبلوا بالسرعة التي تسير بها جامعة الدول العربية لا سيما ونحن نعيش بعصر يسوده نظام السرعة كما ان مشاكل الامة العربية

تحتاج الى مهارة كبيرة وجرأة وحزم لان الزمن قد سبقنا سنين كثيرة .

وقد يكون ذلك هو السر ايضاً في ايجاد روح التشاؤم والتذمر واليأس في نفوس الكثيرين من ابناء الامة العربية بينما نجد الامة العربية بحاجة اليوم الى رجال متفائلين منتجين ، كما اني لا انكر من ان هذه الروح قد خلقت جواً مكفهراً بين افراد الشعب وقادة بعض الحكومات العربية فالشعب العربي يريد الاسراع في العمل ولكن بعض رجال الحكومات العربية لايستطيعون السير بالسرعة التي يتطلبها الشعب منهم ويشبهون في موقفهم هذا الفارس الضعيف الذي امتطى صهوة جواد عربي اصيل فلا يستطيع الفارس ان يترك العنان لهذا الجواد بل نراه يشده في اكثر الاحيان خوفاً من انطلاقه بسرعته الكاملة فيرميه عن ظهره ، لا سيما وقد تكررت مثل هذه الظاهرة في اكثر البلدان العربية .

وقد فهم الاجنبي سر هذا الاستياء في الامة العربية وعرف مقدار عدم الانسجام بين الشعب وبين بعض قادته فأخذ يغذيه ويستخدمه لمصلحته وصار يوقع الشقاق بين الشعب ورجال الحكومة لتبقى الامة ضعيفة سهلة الاستثمار والخضوع كما ان بعض القادة في البلاد العربية لم يصرفوا جهداً ذا قيمة لمعرفة خصائص الامة ومقدار اندفاعها ليضعوا خطتهم السياسية وفقاً لهذه الخصائص .

فالشعب العربي برهن في كل بقعة من الوطن العربي رغم ثقل الاستعمار وخبث اساليبه وتنوع طرقه، انه قوي يستطيع ان يتحمل كل ما يصيبه من المسئولية ويقوم في كل وقت بالكفاح القومي، ففي كل المناسبات القومية كان اندفاع الشعب العربي هو الذي يسوق القيادة الى الساحة ويتوجها باكاليل النصر التي كانت تفاخر بها.

اما الآن وبعد مرور سنتين على جامعة الدول العربية نرى ان الامة العربية قد قررت خوض معركتها القومية مجتمعة لا متفرقة لان الثورات الماضية التي وقعت في البلاد العربية فشل اكثرها حيث انها لم تجري وقت واحد وبتعاون وثيق. والمعركة الحالية شديدة وخطرة فلذلك اضطرت الامة العربية الى استعمال هذا الفن الحربي الذي نأمل ان يؤمن للامة العربية تحقيق اهدافها القومية.

ان الحكومات العربية قد عزمت الآن على ربط الجياد الى بعضها لتسير بعربة واحدة نحو الهدف القومي بسرعة تناسب وقوة الجياد ومقدار انسجامها مع بعضها فان شذ جواد ما الآن في سيره فانه سيظهر شذوذه وسيعرض عربة الامة الى الاخطار لان شذوذ الجواد بعد ربطه مع رفاقه سيؤثر على سير العربة كاملة وسيخدم الاجنبي بشذوذه لانه يعطل السير ويزعج رفاقه الآخرين.

واني استبعد ان يجرأ اي جواد عربي بعد الآن ان يتحمل مسئولية

تأخير عربة الامة العربية لاسيما بعد ان بلغ الوعي القومي في البلاد العربية مبلغاً لا تستطيع معه الدعاية ، مهما تنوعت اساليبها ان تستر خطر مثل هذا الشذوذ او الشطط الخاص وجميع الحجج والاعذار سوف لا تفيد صاحبها لان الامة بدأت صفحة جهاد من حياتها وسوف لا تسمح لشخص ما مهما علت منزلته او مقامه الحكومي ، ولا لشعب عربي مهما كان مركزه السياسي او الاجتماعي ان لا يساهم في هذا الجهاد العربي ويقوم بنصيبه من الواجبات القومية التي تطلبها الامة العربية في هذه الفترة التاريخية .

والعراق العربي معلوم لديكم فهو رغم ما لاقى ويلاقي من صعوبات ومشاكل خاصة به ومتنوعة ، قام بواجبه القومي وما زال يؤدي نصيبه من الخدمة في الكفاح القومي ويساهم بقسطه في بناء الكيان السياسي العربي الجديد وهو انشاء جامعة الدول العربية التي نحتفل اليوم بمرور سنتين عليها .

وان الانقلابات التي تحدث في العراق سوف لا تستطيع ان تؤخر سير العراق او تضعف قوة اندفاعه في العمل من اجل القضية العربية والتاريخ شاهد على ذلك فانه رغم استيلاء العناصر التركية على ناصية الحكم في العراق وجورهم واستبدادهم بالخلفاء العرب والشعب العربي فيه ، استطاع العراق ان يقوم بنصيبه من الكفاح القومي من اجل فلسطين ايام الحروب الصليبية فقد ارسل العراق فتيانه ورجاله الى ساحات

القتال في فلسطين ومصر لمقاومة الاوربيين الغزاة الذين طمعوا في هذه الارض العربية باسم حماية الدين ، وقدم العراق تضحيات معلومة في هذه البقعة العربية كما حصل له شرف اخراج صلاح الدين منقذ المقدس ومطهر الارض العربية من المعتدين والغرباء، فاذا كان هذا عمل العراق ايام محنته الاولى وفي زمن ضعفه وانحطاطه ، أفلا يحق اذن للامة العربية ان تطلب من العراق ان يعيد دوره ثانية لا سيما وهو في مقتبل العمر وبدء نهضة جديدة ؟

ان كل من تتبع سير الحركة العربية ودرس خصائص امتنا وصفاتها يؤمن بان العراق سيقوم بواجبه القومي في كل حركة عربية تحريرية والحوادث القديمة والحديثة تدعم ذلك وتؤيده ولا اريد الا ان اشير الى ما اشتهر في ذلك في التاريخ العربي الحديث .

عندما بدأ رجال العرب في الاستانة وفي البلاد العربية وفي اوربا العمل من اجل تحرير الامة العربية وتحقيق مطاليبها القومية رأينا رجال العراق يقومون بقسطهم من هذا العمل فقد سجل التاريخ الحديث ان طالب باشا النقيب الذي نال زعامة العراق قبل الحرب العالمية الاولى والذي كان سنداً قوياً لاكثر العرب في حفظهم من شر الاتراك يقوم بعملية قومية كبيرة فقد جمع العشائر من مناطق العراق الجنوبية وعقد مؤتمراً لهم قرر فيه الدفاع عن حقوق العرب ومقاومة مشاريع الدولة

التركية بالقوة، وقد قام بذلك مع ان العراق كان خاضعاً للحكم العثماني ومع ان طالب باشا لم يتصل بدولة اجنبية ولم يعتمد على مساعدات خارجية وانما كانت ثقته بنفسه قوية واعتماده على ابناء العرب في العراق هي التي دفعته الى هذه المخاطرة آنذاك .

وعندما عزم المرحوم الملك حسين ان يقوم بالثورة العربية وجد ابناء العراق في اول الملبين لندائه والمنخرطين تحت لوائه في الجيش العربي الذي تأسس في الحجاز لغاية قومية . كما اننا نجد ان الملك فيصل دخل الشام فاتحاً في الحرب العالمية الاولى واسس حكومة وطنية كانت تضم عناصر كثيرة من ابناء العراق لمساهمتهم الفعلية في القتال ضد الجيوش التركية . الا ان الاقدار شاءت ان لاتدوم حكومة فيصل في الشام فانتقلت الى العراق واستطاعت ان تجد في بغداد ما فقدته في الشام فتكونت الدولة العراقية الجديدة من كافة رجالات العرب الذين ساهموا في الثورة العربية واكتسبوا تجارب وخبرة عملية في الكفاح القومي وبناء الكيان السياسي كما انهم تشبعوا بالفكرة القومية ولذلك نرى انه ما كادت تستقر دولة العراق الفتية وتخطو الخطوة الاولى في طريق الاستقلال حتى بدأت تشعر بثقل الواجب القومي الملقى على عاتقها واخذت تؤدي ما بعنقها من امانة وطنية ورسالة عربية لذلك احتضنت رجالات العرب الهاربين من جور المستعمر واذنابه فاصبحت بغداد بعد فترة

قصيرة من نيلها استقلالها المعلوم مأوى للاجئين من ابناء العرب كافة وصارا احرار العرب ينظرون الى بغداد كملاذ لهم وحصن حصين ضد كل طغيان اجنبي . ولم يكتف العراق بهذا العمل القومي بل رأى ان المصلحة القومية تقضي بان يدعم ذلك بتنظيم سياسي يوجه العمل ويقوده نحو الهدف العام فاستطاع ايجاد الحلف العربي الذي ضم الدول العربية الثلاث التي كانت آنذاك تتمتع بالاستقلال مع ان مثل هذا العمل السياسي لم يكن سهلا لما بين بعض هذه الاقطار من مشاكل معلومة .

ولما اندلعت نيران الثورة في فلسطين رأى العراق رغم زوابعه الداخلية الكبيرة والانقلابات التي حصلت فيه ، ان واجبه الاول هو تبني القضية الفلسطينية مع ان فلسطين خاضعة للامبراطورية الانكليزية ذات النفوذ المعلوم في العراق ، فآوى الثوار ورئيسهم فوزي القاوقجي وبعد ذلك استقبل برحابة صدر مفتي فلسطين نفسه رغم احتجاج الانكليز الذين يملكون قوة عسكرية في قلب العراق تستطيع ان تزعج العراق كثيراً . فلما رأى المستعمر هذا الاندفاع القوي من قبل العراق في تحقيق مطاليب العرب وتأييد قضيتهم العامة شعر بعظم الخطر على مصالحه الاستعمارية في الشرق الادنى فانتظر حتى جاءت له الفرصة باعلان الحرب العالمية الثانية فاراد ان يسلب العراق ما ناله بدماء ابنائه وجهود اخوانه ابناء العرب كافة . وطرق الاستعمار بينة واساليبه واضحة فقد اصبحت

معلومة من قبل البسطاء من الناس فالاستعمار يتهز الفرص ويحدث الانشقاق في الصفوف الوطنية فيخلق هيأتين من الشعب متطاحنتين، تحارب كل منهما الاخرى وتعتبرها عدوها الاول وبذلك ينشغل الشعب عن محاربة الاستعمار بمحاربة نفسه، فيضمن عند ذلك بهذه الطريقة بقاءه واستمراره ونهب خيرات الامة ومنتوج البلاد. وهكذا فعل في العراق فكانت معركة ١٩٤١ او بالاحرى معركة الامة العربية ممثلة في العراق، ورغم تطور المعركة في غير صالح العراق والعرب، بقي العراق محافظاً على عهده للامة العربية قائماً بنصيبه من الخدمة في سبيلها واندفع كعادته في الاشتراك في بناء كيان جامعة الدول العربية، ولم تؤخره كل هذه التقلبات الداخلية على المساهمة بقسط وافي في هذه القضية.

فالعراق الذي بقي متحملا المسئولية تجاه الامة العربية وساهراً على مصلحة العرب، والذي طبع بطابع الرجولة والقوة العسكرية والذي لم تعرف عنه صفة الانانية او ضعف العقيدة بالنسبة لغيره من الاقطار العربية الاخرى سيبقى محافظاً على عهده لهذه الامة ومثابراً على اداء واجبه نحو البلاد العربية كافة لا سيما في هذا الوقت الذي تقابل فيه الامة العربية اكبر محنة عرفتها في تاريخها الحديث محنة الاستعمار والصهيونية.

واذا ساوس نفوس بعض العرب شيء من افكار الريبة والحذر وبدت على وجوههم بعض المخاوف من ان بعض الاتجاهات الخاصة في

العراق ستحاول توجيه العراق الى جهة غير الجهة التي اتخذها قبلة له ،فهم مخطئون لان مثل هذه المصالح سوف لاتستطيع ان تحول العراق العربي الى هدف غير هدف العروبة العام وسيبقى العراق دوماً الى جنب الدول العربية الاخرى مناضلا عن كيان العرب وحقوقهم ولن ينسى من انه كان اول المساهمين في بناء هذا الكيان السياسي ، المندفعين في دعمه وتأييده وسوف لن يكون من المغيرين او المبدلين والايام المقبلة ستثبت كل ذلك .

* * *

القضية العربية في التاريخ الحديث

لما كان كل جيل في الامم مسؤولا عن حل مشاكله وانجاز اعماله والسير بأمته وفقاً لمقتضيات العصر الذي يعيش فيه، وجب على ابناء هـذا الجيل من العرب ان يدرسوا الحالة التي هم فيهـا والصعوبات التي يلاقونها دراسة علمية مبنية على الواقع المحسوس ومستندة على المقارنة الصحيحة ليستطيعوا ان يتغلبوا على الصعوبات التي تواجهها امتهم اليوم.

لقد مرت على الامة العربية فترة ربـع قرن من الزمن او تزيد، وهي مثقلة بالمصائب والآم، ورغم تضحياتها الكثيرة المستمرة لازالت مشاكل هذا الجيل معقدة بل تزيد تعقداً يوماً بعد يوم حتى اخذ الكثيرون من ابناء هذه الامة يسأمون من حالة بلادهم ويتمنون لو تهيء لهم الفرص ليرحلوا الى المهجر او الى خارج هذا الوطن العزيز على الاقل.

واننا نفهم سر هذا السأم ومصدر هذا الضغط فالامة العربية كانت تابعة للدولة العثمانية وعاشت حقبة طويلة من الزمن في عزلة عن العالم، وخاضعة لسلطـة غير عربية، وعلى الرغم من اتصاف السلطة العثمانيـة

الحاكمة بالصفة الاسلامية فقد بقيت البلاد العربية تشعر بان الحكم غريب عنها وعما الفته في ايام عزها ومجدها .

والدولة العثمانية بوضعها الماضي كانت تقط في سبات عميق بالنسبة للدول الاوربية المجاورة لها والطامعة في اراضيها ولم تستطع الدولة العثمانية ان تستفيد من النهضة الاوربية رغم مكانتها السياسية آنذاك بل بقيت محافظة على القديم فسبقها الزمن كما انها لم تحاول اللحاق به .

فاذا كانت الاستانة مركز الامبراطورية العثمانية واقرب الاقسام فيها الى اوربا بل هي جزء من اوربا، لم تستطع الاستفادة من النهضة الاوربية فكيف اذن بالبلاد العربية التي كانت تابعة للاستانة وتبعد آلاف الكيلو مترات عن اوربا .

فوزر هذا التأخر لهذه الفترة التاريخية المهمة التي تزيد على الخمسة قرون ليقع على عاتق الحكام العثمانيين الذين لم يكونوا من النضوج الفكري بحالة تجعلهم يقتبسون ما هو مفيد وضروري لبلادهم من هذه النهضة الاوربية التي اصبحت اساساً لكافة نهضات العالم .

وقد لانبرئ بعض العناصر العربية آنذاك لان عقليتها العربية المرنة كانت تدعوها لان تؤثر على بعض الحكام الاتراك بقدر مايسمح لها مقامها الرسمي او على الاقل تحاول استغلال مركزها الرسمي لتفيد العربية او لتحاول تسهيل انفصال البلاد العربية عن الامبراطورية

العثمانية بل وجدنا العكس، اذ رأينا ان بعض العناصر العربية ساعدت الدولة العثمانية على محاربة كل حركة استقلالية في البلاد العربية لا سيما التي ظهرت في بعض الاقطار العربية التي كان يسمح لها مقامها الجغرافي على الافلات من نفوذ الحكم التركي كاليمن وعمان ونجد .

كما ان العناصر العربية ذات العقلية المرنة التي كان واجبها رغم وقوعها تحت سيطرة الحكام الاتراك ان تؤثر على عقلية العثمانيين رأيناها تقترف ذنباً آخر بان تأثرت هي نفسها بالتعصب العثماني فبدأت الحركات الدينية بين العناصر العربية لاول مرة في تاريخ الامة العربية . فالامة العربية لم يعرف عنها في حياتها اي تعصب ديني لرحابة صدرها ومرونة عقليتها وهذا ما سهل لها انشاء كيان عربي في فترة لم يعرفها التاريخ القديم اذ لم يذكر لنا تعصباً دينياً عند العناصر العربية ، فنجد ان دولة بابل القديمة لم تحارب احداً ، الا اليهود حيث طردتهم من ارض العراق لخبثهم وسوء خلقهم ، ولما استقروا في بعض نواحي القدس ، تلاعبوا ثانية وبدأوا يدسون فحاربهم البابليون ثانية ، وسبوهم اسرى الى العراق ولم يسمح لهم بالنزوح ثانية الا بعد سقوط دولة بابل واستيلاء العناصر الغريبة وهي الفارسية على الحكم . كما ان الفراعنة وهم قبائل عربية لم يعرف عنهم اي تعصب ديني فهم لم يحاربوا الا اليهود ايضاً لان مصر التي آوت اليهود وعطفت عليهم ضجرت منهم ومن الاعيبهم واخلاقهم ، حيث لا يعرفون وفاء لعهد

ولا حرمة لضيافة لذلك فقد نبذتهم الى خارج الاراضي المصرية ، الى صحراء سينا ليلاقوا فيها جزاء ما اقترفت نفوسهم الخبيثة .

اما العرب في الزمن الاسلامي فلم يحاربوا اي عنصر او دين اللهم الا اليهود فقط حتى ان عمر بن الخطاب حرم عليهم دخول مهد العروبة الاول ليبقى مصوناً من خبثهم ودسائسهم وتفاهم من ايليا كما ابقى كافة الاديان الاخرى حرة ، لذا كان يجب على العرب الذين ساهموا في حكم الاتراك ان لايقبلوا بان تحدث في بلادهم بعض النعرات الدينية وتكون سبباً مباشراً لدخول التأثير الاوروبي السياسي المستتر وراء حماية الدين وان كان الذنب يقع في الدرجة الاولى على الحكام الاتراك الذين كانوا من الضعف بدرجة سمحت لبعض الدول الاوربية القوية وذات النفوذ ان تحاول الدخول الى ممتلكات الدولة العثمانية باسم الدين او بحجة اخرى وقد تم لها ذلك .

ان وزر هذه الفترة الطويلة يجب ان لايتحمله الرجال العرب الذين عاشوا في آخر ايام الدولة العثمانية بل بالعكس ، فلبعضهم الفضل الاكبر في المحاولة التي قام بها ، وهي اخراج البلاد من نفوذ الاتراك وهذا الفضل سجله لهم التاريخ لان الحركة الانفصالية التي قام بها العرب هي ذات قيمة تاريخية كبرى ، نظراً لعقلية الجيل الماضي ومشاكله السياسية والاقتصادية والدينية .

ومهما انتقدت هذه الحركة وبحث في هفواتها فهذا لايقلل من قيمة العمل بل يزيده رونقاً وقوة لاسيما اذا قورن بغيره بنفس الشروط والظروف والامكانيات .

ان هذه الفترة التي نعيش فيها والتي يعد جيلنا مسؤولا عنها والتغلب على مشاكلها ، قد بدأت في اوائل هذا القرن ـ اي القرن العشرين ـ ومبدأ القرن العشرين مهم لكافة الشعوب الحديثة اذ حدثت تطورات علمية وسياسية هامة اثرت على مجرى الحضارة البشرية والسياسة العالمية. ومبدأ القرن العشرين مهم لنا نحن العرب بصورة خاصة .. لان القضية الشرقية قد نضجت فيه ولم يبق للدول القوية الا اقتسام الغنائم والميراث من الدولة العثمانية ، بعد ان اصبحت تنتظر موت الرجل المريض في الاستانة كما انه يعد مبدأ محاولة انعاش للامبراطورية العثمانية قام بها نفر من شباب الاتراك وساروا فيها على طريقة تقليدية لاتلائم الزمن الذي قاموا فيه ولا تفيد الشعوب الاخرى التي تتكون منها هذه الامبراطورية وفي مقدمتها الشعب العربي .

فالشعب العربي الذي احتمل حكم الاتراك فترة طويلة من الزمن لم يستطع الخضوع لمطالب الاتحاديين الرامية الى محو الطابع العربي من الوجود وادماج الامة العربية كاملة ، بما فيها من حضارة وثقافة ومدنية ، في النطاق التركي الضيق ، الذي لايتسع حتى للشعوب التركية وحدها .

عند ذلك حدثت الرجة العربية المنتظرة وبدأت النفوس العربية تشعر بثقل الواجب الملقى عليها في مثل هذا التطور الجديد.

فطبيعة هذا التطور الجديد ووضع رجال الحرب المفكرين الخاص اعطى حركتنا العربية طابعاً سلبياً.

وان الظرف القاسي الذي واجهه رجال العرب في البلاد العربية الخاضعة للدولة التركية، وفي الاستانة كان يتطلب ان تكون الحركة العربية شديدة الحذر لذا وجدنا الحركة العربية فيهما تأخذ طابعاً سرياً او ادبياً خوفاً من الحكام الاتراك وعيونهم الكثيرين.

وان الحالة التي كانت سائدة في اوائل القرن العشرين كانت تتطلب من العناصر العربية العمل السلبي، لان الامة العربية قررت الانفصال عن حكم الاتراك، فلا بد اذن لكافة العناصر المفكرة من العرب ان يستخدموا الطريقة السلبية، وهي عدم التعاون مع رجال الحكومة العثمانية بل يقومون بمحاولة عرقلة مشاريعها «التتريكية» في الاقطار العربية. وبما ان الدولة التركية كانت ضعيفة فلم يكن العرب بحاجة الى جهد ايجابي كبير لمقاومتها، اذ كانت السلبية وحدها كافية للوصول الى الغاية، وكل ما كانت تحتاجه هذه الطريقة من الكفاح انما هو رجال مخلصون وشجعان يستطيعون ان يجازفوا ويقفوا في وجه رجال الاتحاد والترقي الذين استخدموا القسوة والظلم في اخضاع العرب.

وقد استطاعت الامة العربية ايجاد الرجال الفرديين الضروريين لهذه الحركة العربية ولذلك فقد قامت كثير من الجمعيات السرية والعلنية بواجبها القومي بالنسبة لذلك الزمن وطرقه المألوفه . ولما اعلنت الحرب العالمية الاولى اندفع بعض العرب الى الميدان، لتحقيق مطاليب الامة القومية وساروا الى ساحة القتال العسكري او الكفاح القومي وقدمت فئة من خيرة ابناء الإمة من التضحيات ما يتناسب وحرمة الامة العربية وسمعتها التاريخية ، فلم تخش هذه الفئة جور الاتراك ولا ظلم ساستهم وقوادهم كما لم ترعبها المشانق التي علقوا عليها زهرة شباب العرب ورجالهم في بيروت ودمشق ، ولم تعبأ بقسوة السجون التي حشدوا فيها العدد الكبير من رجال امتنا .

ولما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء على الاتراك ، لم ينل العرب ما كانوا يصبون اليه ، لان الحلفاء لم يكونوا حسني النية معهم ، ولا صادقي العهود ولذلك فقد استمر الكفاح السلبي في كافة الاقطار العربية ، وبقي كثير من رجال العرب الذين ساهموا في الكفاح القومي مستمرين في نضالهم مع المستعمرين الذين كانوا اقوى عدة من الاتراك ، وكانت دولهم اكثر حنكة سياسية وخبرة من الدولة العثمانية السابقة ، كما ان الامة العربية رغم وعيها القومي المعلوم قامت ببعض واجبها من الكفاح السلبي . ودامت هذه الفترة ربع قرن جاهد فيها رجال العرب منفردين

كل في بلاده الضيقة وان كان يعتمد في بعض الاحيان على مساعدة بعض اقسام البلاد العربية وعطف الامة العام حتى حانت الفرصة فرصة الحرب العالمية الثانية فكان من حسن حظ الامة العربية ان وجد على رأس الكفاح القومي في بعض الاقطار العربية لاسيما في سوريا ولبنان، موطن الجمعيات السرية في عهد العثمانيين ومنبع الفكرة القومية لهذه الفترة التاريخية نخبة من المكافحين القوميين وفي مقدمتهم رئيس الجمهورية السورية، الذي ذاق عذاب الاتراك وسجل له في تاريخ هذه الامة صفحات لامعات، في الكفاح القومي والتضحية الوطنية، على رأس الحركة التحريرية الجديدة فدار حركة الكفاح في الحرب الثانية بحزم واقدام، وسجل نصراً جديداً في نيل استقلال البلاد استقلالا لم تحصل عليه كثير من الدول العربية التي هي اكثر عدداً من سورية واقوى شكيمة منها.

وقد اصبحت فرصة العرب الآن ان يستثمروا هذا النصر، فيحافظوا عليه ويستخدموه في دفع الامة العربية نحو هدفها القومي العام واصبح واجب الشعب العربي، في هذه البقعة العربية المستقلة، الانتقال من الحالة السلبية الماضية الى الحالة الايجابية التي يتطلبها هذا الوقت والظرف وذلك بان يبدأوا دور الانشاء والتكوين لاسيما ونظام الحكم في هذه المنطقة العربية يسمح بذلك ويسهله لان البلاد تتمتع بقيادة شعبية متحررة من

القيود العائلية وتقاليدها وتكاليفها التي تقف دون نمو الامم فهذه فرصة كبيرة سوف لاتسنح ثانية فعلى الشابات والشباب بل وجميع الهيئات الاجتماعية ان تحاول الانتقال من الحالة السلبية الى الحالة الايجابية ومثل هذا الامر ليس بالامر السهل ما لم تتضافر الجهود عليه لان انتقال الامم من حالة الحرب الى حالة السلم وبالعكس يتطلب جهوداً مشتركة ومقدرة حكومية وشعبية .

وكلما كانت الامة حية والقيادة صالحة قصرت فترة الانتقال وهذا ما يجب ان يعمل له كل مخلص في هذه البلاد وبقية الاقطار العربية الاخرى ، والتاريخ يشهد للعرب بهذه المقدرة وسجل لآبائنا مثل ذلك. فمن واجبنا ان نجد له يسجل لنا مثل ما سجل للآباء والاجداد فها ان التاريخ قد امسك اليراع وفتح الصفحة الخاصة بالامة العربية في هذه المعركة القومية من اجل فلسطين وبدأ رجال الامة العربية يعلنون عزم الامة الاكيد على الكفاح حتى النصر الاخير فلنسر في هذا الطريق لننقذ شرف العروبة وحرمة البلاد ولنجعل التاريخ يسجل في صفحة فلسطين لاجيال القرن العشرين من العرب مثل ما سجل لاجيال القرن الثاني عشر في نفس هذه الصفحة وما اشبه الليلة بالبارحة ،

محمد مبدع القومية العربية

في القرن الخامس والسادس كان العالم المتمدن على شفا جرف هار من الفوضى ، لان العقائد الدينية التي كانت تعين على اقامة الحضارة كانت قد انهارت ولم يكن ثمة ما يعتد به ، مما يقوم مقامها . وكان يبدو اذ ذاك ان المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها جهود اربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال وان البشرية توشك ان ترجع ثانية الى ما كانت عليه من الهمجية ، فالقبائل تتحارب ، وتتناحر وليس هناك نظام او قانون . اما النظم التي خلفتها المسيحية فكانت تعمل على التفرقة اكثر مما تعمل على الوحدة فاصبحت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها الى العالم كله ، واقفة « تترنح » وقد تسرب اليها العطب حتى اللباب ، وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وجه العالم جميعه .

هذا ما كتبه العالم دينسون عن محمد في كتابه باللغة الانكليزية « العاطفة اساس المدنية » .

فما اشبه القرن العشرين بالقرن السادس ، وما احوج العالم في يومنا

هذا الى من ينقذه من مصيبته الحالية كما انقذه محمد ايام محنته الاولى .

وما احوج العرب الى من يوجههم لخدمة البشرية كما وجههم محمد .

اننا نحتفل اليوم بذكرى ميلاد محمد لا لنظهر عظمته واجلاله فالعالم يشهد له بذلك ويقدره ، واتباع محمد يملأون الارض شرقاً وغرباً ، وفي كل بقعة من بقاع الكرة الارضية يقوم لهم مسجداً ومساجد تعلن كل يوم خمس مرات فضل محمد على البشرية جمعاء .

اننا نجتمع اليوم كما نجتمع في كل عام في مولد محمد لا لنعتز به فقط لانه عربي ولانه أوجد امة وكون تاريخاً ، وجاء برسالة ، فهذا ما يعرفه القاصي والداني ، المؤمن وغير المؤمن ، العدو والصديق .

اننا لا نجتمع لهذه الغايات فقط بل لشيء اهم من هذا واعظم . نجتمع اليوم لنقتبس شيئاً من روح محمد عل ذلك يساعدنا على حل حل مشاكلنا التي نواجهها اليوم والتي استعصى علينا حلها نجتمع لنسترشد بذلك الى الصراط المستقيم الذي وجه محمد اليه آباءنا واجدادنا ، فدفع بهم في فترة قصيرة الى اقاصي الشرق واواسط الغرب وخلد امتهم بكيان متين ونظام دقيق لم تستطع الايام رغم مصائبها الكثيرة وعواصفها الشديدة ، زعزعته او القضاء عليه .

فالعرب يواجهون اليوم محنة كبرى في تاريخهم ، محنة تتطلب منهم القوة والاسراع في العمل ، محنة نأمل ان تكون فاتحة عهد جديد للعرب

والبشرية كما كانت محنة العالم والعرب ايام ظهور محمد. فوجه الشبه بين حالة العرب اليوم وحالتهم ايام ظهور محمد هو الذي يجب ان يدفع كل مفكر منا ليدرس حياة محمد لنستعين بذلك على دفع الخطر المحدق بنا، كما دفع محمد الاذى عن آبائنا واجدادنا.

لقد نشأ محمد في بيئة كانت آنذاك مركز التفكير العربي وملتقى الزعماء والمفكرين، فخالط الزعماء والعلماء وحضر مجالس الشورى والاسواق العربية والمجتمعات العامة وهو شاب، فرأى اكثر قادة قومه وسمع بأذنه آمالهم وآلامهم وشاهد بنفسه طريقة نقاشهم ونوع تفكيرهم، فشارك قادة القبائل العربية شعورها وهو صغير، واشترك في حل مشاكلها وهو شاب فشب عربياً في شعوره واحساسه، وعبقرياً في رأيه وتفكيره. وأصبح لايشغله امر في هذه الدنيا الا انقاذ امته وقيادتها في خدمة العالم والبشرية.

ومن اهم الحوادث التي اثرت في نفس محمد وهو يافع، اخبار حرب ذي قار، فقد توترت الحال بين الشعب العربي في العراق، وحكامه الاعاجم، وانتهى هذا التوتر بحرب انتصر فيها العرب لاول مرة بعد فترة طويلة من الخضوع والاستبداد. فلم يفخر محمد باكثر مما فخر بهذا الانتصار العربي في العراق حتى قال: اليوم انتصف العرب من العجم فاخبار العراق قد أيقنته بان العرب امة لها خصائص منفردة تفوق بها

غيرها من الامم المعاصرة، فما هو السر في تفرق كلمتها وخضوعها لسلطان اجنبي لايمتاز على العرب بشيء . ومما آلم محمد وآذاه ما شاهده بنفسه في سفراته الى الشام ، من احتقار الروم للعرب رغم حاجتهم اليهم ، فقد كان الحكام الصغار من الاعاجم يقابلون ساسة العرب القادمين من الحجاز باستهزاء واحتقار .

لقد فكر محمد كثيراً في سر هذا الضعف العربي وطريقة القضاء عليه ، وهذا الشعور هو الذي قض مضجعه ونغص عليه عيشه وزاد في كربته وآلامه ، واخيراً كشف السر ، ووقع على موطن الداء وعرف الدواء .

انه داء واحد اصاب العرب فاضعفهم ، واستولى عليهم ففرقهم حتى اصبحوا رغم ما انتجوه للعالم من حضارات كبيرة في العراق ومصر واليمن خاضعين لمن هم اقل منهم شأناً واصبحوا بيد الروم والفرس يوجهون كل قسم منهم ضد القسم الثاني وبدأ التاريخ يهزأ بالامة العربية وكثرة عددها ، وسعة ارضها ، وسخر منها صاحب السلطة فيها ، فوصفها بانها امة ترعى الابل ، وتأكل اليرابيع ، وهي كلمة لايقبل بها اقل بدوي في الصحراء .

لقد كان سر ضعف العرب هذا ، فردية طاغية ، وحس قبلي مستحكم . وقد شارك محمداً في ذلك كثيرون من ابناء العرب وقادتهم ، ولكن

محمداً وحده هو الذي خصص نفسه لمحاربته وازالته ، ومحمد نفسه هو الذي وهب نفسه لهذه الامة ، وللعالم اجمع ، ومحمد وحده هو الذي استطاع ازالة الضعف واحلال القوة محله . وهذا هو فضل محمد على العرب والبشر . فليس الفضل ان يعرف الداء والدواء ، وانما الفضل ان يسهر الطبيب على المريض ، ويصرف جهده ورحه لانقاذه من براثن الموت ومنحه الحياة . وهذا ماصنعه محمد وما يجب ان نستفيده من ذكرى ولادة محمد .

ان حياة محمد مملوءة بالقوة والعبر ، فقد كان محمد مثلا حياً لابناء قومه قبل الرسالة وبعدها ، حتى طأطأ له الرأس المسلم والمشرك وانحنى اجلالا لصفاته وخلقه كل من عرف محمد . وصفات عربية اصلية اذ جرد نفسه مما ابتلى به ابناء قومه من مرض الفردية او العائلية او القبلية وسيطر على نفسه ، ومن استطاع ان يسيطر على نفسه ، استطاع ان يسيطر على غيره ، ومن استطاع ان يكون انسجاماً بين فكرته وعمله ، استطاع ان يحقق الفكرة وينشر الرسالة .

لقد جرد محمد نفسه من الفردية ، فاصبح صدره مفتوحاً لسماع كل رأي حتى انه لا يبت في امر الا بعد استشارة من يعتمد عليه من صحبه وهو الرسول المطاع . وابتعد عن الحس العائلي او القبلي ، فاصبح لافرق عنده بين بني هاشم ، او قحافة ، او امية ، فكل من اعتنق

الفكرة وآمن بالرسالة فهو المستحق للعناية المحمدية وللعطف النبوي ، وكل من ابتعد عن ذلك كان بعيداً عن محمد ولو كان عمه او ابناء عشيرته الاقربين : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » فبعد ان تم له ذلك درب صحبه عليه فنظم امرهم ورتب العبادة وجعلها تثبت فيهم روح الجماعة وتجعلهم متساوين ، فالصلاة حيث يقف الكل في صف واحد منتظم وراء امام واحد . والزكاة التي يجبر المسلم على ادائها لا كصدقة بل كضريبة ، كانت عاملين من عوامل روح التنظيم الاجتماعي والاقتصادي الذي تبنى عليه انظمة الدول وحياة الشعوب . وهذا التنظيم الذي يوفق بين الناحية الخلقية والناحية المادية ، هو الذي كون القوة في الاسلام منذ نشأته الاولى ، وهو الذي ربط نفوس العرب بعضها ببعض . لقد سهر الرسول الليالي الطوال يدرب صحبه المسلمين على هذا النظام ، وقد بقي عدد المسلمين قليلا ، لان مثل هذا النظام الاجتماعي والاقتصادي لم تألفه العرب ، وان ألفته فلا تستطيع تطبيقه بسهولة ، لما فيه من روح الجماعة وفكرة الوحدة والطاعة المطلقة .

وماذا يهم محمد العدد الكبير الذي لا ينسجم في نظام ولا يخضع الا لعادات فردية لا قيمة لها في حياة الامم « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » فالفئة المنظمة هي التي ستفوز في المعركة وان قل

عددها، فخير لمحمد ان يحصل على فئة منظمة قليلة العدد من جماهير لاتقاد ولا تخضع. كما ان قيادة الجماهير تتطلب فئة من الناس متماسكة فيما بينها واعية لروح النظام الذي تسير عليه خالية من الادران والشوائب حتى تستطيع تحمل المسؤولية وتتقدم الناس في المعركة عن رضى وعقيدة.

وهذا ما سعى اليه محمد وهذا ما ناله وحصل عليه فعلى الزمرة الاولى المختارة كان يعتمد محمد في ادارة الامر، وفي العشرة المبشرة كان مركز الثقل في كافة الاعمال الكبيرة وازالة الصعاب وحل المشاكل.

واول مظهر للتنظيما الثاني وهو التنظيم السياسي الذي قام به محمد فهو القيام بالهجرة والخطوات الاولى التي اتخذها لتنفيذ هذه الخطة. لقد كان يعلم انه جاء بدين فيه انقلاب اجتماعي وسياسي واقتصادي، دين يكون اساساً لدولة، ونظاماً لامة، فهو لايختص بقبيلة ولا ينفرد بهيئة اجتماعية ولا يقتصر على ناحية واحدة من الحياة، فقام بالهجرة لا خوفاً من قريش، فلم يعرف لا عن محمد ولا عن صحبه خوف او وجل، ولكنها خطة لابد منها ليخرج الاسلام من محيطة الضيق الى العالم الفسيح. فما كاد يصل يثرب حتى ظهر عمل محمد التنظيمي فلم يصبح عمله مقتصراً على اقامة شعائر الدين، وتفهيم المسلمين امر الدعوة، اذ ان هذه المرحلة قد انتهت، وانما قام بتنظيم الكيان السياسي والعسكري،

ويثرب كانت ملتقى الديانات وفيها نزعات قبلية مستحكمة ومشاكل عائلية مستعصية .

لقد شعر محمد بكل ذلك ، فنظم له خطته وأحكم امره . شعر محمد في يثرب بعبء القيادة العامة ، لانه اصبح قائداً عسكرياً ، وزعيماً سياسياً ، ومصلحاً اجتماعياً ، ومنظماً مدنياً ، الى جانب عمله الديني كمرشد وواعظ ومقيم لشعائر الدين . وهذه المسؤولية الكبرى والمتشعبة ، هي التي اخضعت النفوس لمحمد في يثرب ، فقد اظهر كفاءة ومهارة ، واستطاع حل مشاكل يثرب واحلال السلام بين قبائلها المتنازعة ، وديانتها المتنافرة ، وربط الجميع بمعاهدات سياسية دلت على بعد نظر محمد وتفوقه على اهل يثرب ، فقد نظم هذه المعاهدات بحيث أمن تنفيذ الخطة التي جاء لتنفيذها ، وهي اعلان الحرب على قريش واحتلال مكة مركز الديانات العربية ، وملتقى العشائر والقوافل ، اذ كان يعتقد ان احتلال مكة هو الذي سيخضع العرب لهذا الدين ، وهو الذي سيوحد كلمتهم ويلم شملهم ، وهذا ما قام به بعد ان تيقن من ايمان المهاجرين والانصار ، واطمأن الى اتحادهم وامتزاجهم . فقد آخى بينهم مع انهم كانوا من كافة عائلات قريش وقبائلها ، واصبحوا قوة قوية في انسجامها وايمانها . وقد تم لمحمد ذلك ، فقد احتل مكة ، فدانت له القبائل وبدأت تدخل في دين الله افواجاً افواجا .

وما كاد يشعر بلذة النصر بجمع كلمة العرب في الحجاز وبانضمامها في صفوف الاسلام ، حتى سارع فاعلن عزمه على محاربة الروم والفرس ، وما دام قد ملك امر العرب فلا يخشى اية قوة اخرى . فحارب الامبراطوريتين دون ان يعبأ بما عندهما من جيوش جرارة ومعدات حربية . فالايمان الذي ملأ قلوب المسلمين والنظام الذي ربطهم كفيل بان يقوض دعائم هاتين الامبراطوريتين اللتين انهكتهما الخلافات والخصومات واكلت قلبيهما المادية وحب الدنيا وقد تم له ما اراد ونال كل ما كان يتمناه ولما عاجلته الوفاة وهو وسط هذه المعركة التاريخية الكبرى لقي الله راضياً مرضياً ، مطمئناً على امته لانه ترك وراءه امة موحدة ودينا قويماً واصحاباً هضموا الفكرة ووعوا الدين فأصبحوا قادرين على ادارة المعركة من بعده وتحقيق الغاية التي كافح من اجلها وهي اعلاء كلمة الله واخراج هذه الامة للعالم بما كرامتها وحرمتها ولها مقدرتها وميزتها في خدمه البشر والانسانية .

فيازعيم العرب ونبي الاسلام ، اننا نتضرع اليك في يوم مولدك ان تظل بروحك الطاهرة على ابناء امتك في صراعهم الحالي فتدعو الله ان يغفر لهم ويوفقهم ، فهم يدخلون هذه المعركة الحاسمة من تاريخهم الجديد بنفس الروح الفردية المشبعة بالانانية التي حاربتها وقضيت عليها . ويتمسكون بالنظام القبلي الذي سموه بقانون الدول المحلية حتى اصبح

العربي لايفرق عن الاعاجم في نظر هذه القوانين وقد تأصل فيهم رغم حداثة عهده واجنبية مصدره ولم يجرأ احد من ابنائك على تغييره ، رغم اجتماعاتهم ومقابلاتهم مع انك كنت اول من حاربه وقضى عليه . اننا نتوسل اليك ان تدعو لنا ربنا ان يرفق بابناء قومك اليوم كما كنت تفعل بدعائك الاول : « اللهم اغفر لقومي فانهم لايعلمون » .

لقد كنت يازعيم العرب ونبي الاسلام ارحم بآبائنا واجدادنا منهم بانفسهم فكن رحيما بنا كما كنت بآبائنا لاننا ضللنا الطريق التي رسمتها لنا ؛ وابتعدنا عن النظام الذي اوجدته فينا ؛ ونبذنا الوحدة التي منحتنا اياها . اننا نرجوك ان لاتؤنبنا لاننا ضعفاء فان تأنيب من هو دونك يكاد يقضي علينا فكيف بتأنيب زعيم العرب ونبي الاسلام .

* * *

ذيل

Napoleon Bonaparte

(١) هي عاصفة نابليون بونابارت الذي حارب اكثر دول اوربا ومنها دول المانيا لا سيما بروسيا . وقد استطاع نابليون ان يدحر الجيوش البروسية في معركة يه‌نا سنة ١٨٠٦ ، اذ خسرت الجيوش البروسية المعركة وهزمت شر هزيمة فكانت سبباً مباشراً في تسليم بروسيا وقبول شروط نابليون المقاسية ، التي منها ان تتعهد بروسيا بتزويد نابليون بالفرق العسكرية التي تشترك معه ضد روسيا كما ان بروسيا فقدت بنتيجة هذه المعاهدة ما يقرب من نصف اراضيها .

Friedrich wilhelm

(٢) هو القيصر فريدرك وللم الثالث ، الذي حارب نابليون ولكنه خسر الحرب وتكبدت جيوشه اكبر الخسائر في كافة المعارك التي حصلت مع جيش نابليون قبل الحرب الروسية ومع ذلك لم ييأس ولم يفقد الامل باعادة مجد بروسيا ثانية بل بقي يدأب على ازالة العار الذي لحق بالجيش البروسي في هذه الحروب مع نابليون فاستطاع رغم فقدان نصف اراضي مملكته وتزويد جيش نابليون بالفرق الكثيرة ، ان يكون جيشاً جديداً بنظم جديدة وقد اوجدت هذه الكارثة القومية الرؤوس العسكرية المفكرة وهي شارن هورست (scharnhorst) وبلوخر Bluecher وكلوزه فتز clausewitz والتي

اصبح هؤلاء العسكريون البروسيون اساتذة الفن العسكري في اوربا لانهم استطاعوا ان يوجدوا الجيش الضروري لبروسيا ويساهموا بجيشها الصغير والحديث التنظيم في معركة تحرير بروسيا من كابوس نابليون وان يسجلوا انتصاراً حاسماً على نابليون سنة ١٨١٣ اي بعد مدة لا تزيد على سبع سنوات من خسارتهم الكبرى ، فاستعادت بروسيا بفضل ثبات القيصر كافة اراضيها وارجعت للجيش البروسي وللشعب الالماني كرامته وحرمته .

(٣) فيشته Johann Gottliele Fichte

هو المربي القومي الالماني الاول ومن اكبر فلاسفة عصره وقد كان يتميز عن رفاقه الفلاسفة الالمان بالجرأة النادرة والحس القومي العميق فلم يبال بكرسي الجامعة في سبيل اعلان رأيه الفلسفي بصراحة - كما لم يخش قوة نابليون وجنوده في سبيل اعلان فكرته القومية فقد القى خطاباته المشهورة على الشعب الالماني في جامعة برلين على مرأى ومسمع من الجيوش النابليونية المنتصرة وكان لخطاباته هذه التي القاها في ١٨٠٧ - ١٨٠٧ اكبر الاثر في توضيح الفكرة القومية الالمانية ودفع الشباب الواعي الى الانخراط بالجيش البروسي عن عقيدة وايمان ومساهمتهم الحديثة في انقاذ شرف بروسيا .

(٤) يان Friédrich Ludwig jahn

لقد كان استاذاً في جامعة برلين ١٨١٠ اي بعد خسارة بروسيا وقد سمع خطابات فيشته وساهمه الرأي في بذل الغالي والرخيص لأعادة المجد الالماني المفقود ولقد رأى ان ذلك لا يتم الا اذا استطاع الشباب الالماني الدخول عن عقيدة في الجيش البروسي وان يكون هذا الشباب مدربا تدريباً جسمياً صحيحاً لذلك فقد بدأ بانشاء الملاعب الرياضية في برلين ثم اوجد مثل هذه الملاعب في البلدان الاخرى الالمانية حتى اصبح «يان» يدعى لذلك «ابو الالعاب الرياضية» . وقد ساهم هو نفسه في معركة التحرر الالمانية وتقدم الشباب الالماني

كضابط في الجيش البروسي ودخل باريس في مقدمة الجيش البروسي المنتصر . وله الفضل الاكبر بنشر الفكرة القومية بين الشباب الذين اشتركوا في الملاعب الرياضية وكتابه الذي كتبه عن الشعب الالماني ما زال يحتفظ بالشيء الكثير في الآراء الصائبة في بناء القومية الالمانية حتى يومنا هذا .

(٥) كونت Auguste comte

هو المفكر الافرنسي المشهور الذي اوجد القواعد العلمية لعلم الاجتماع حتى اعتبره العلماء الغربيون المؤسس الاول لهذا العلم ولقد شاهد كونت التطورات السياسية والعسكرية في فرانسا من سقوط الملكية الى قيام الجمهورية ثم سقوطها ثانية كما تأثر كثيراً بالثورة الافرنسية ونتائجها المختلفة لاسيما انتصار نابليون وانكساره ، كل ذلك دفعه الى التفكير في ايجاد قواعد اجتماعية ثابتة لوضع حد للتدهور والانقلاب السريع في حياة الشعب الافرنسي . وهو الذي وضع قانون المراحل الثلاث لتطور الفكر البشري (الطور الديني – الطور الفلسفي الطور العلمي)

(٦) هو علم الاجتماع soziologie الذي اوجد قواعده العالم كونت والذي وجه العلماء في درسهم للظواهر الاجتماعية وجهة جديدة ، فأصبحوا يدرسون هذه الظواهر كما تدرس الظواهر الطبيعية وبذلك يستطيعون فهم الشيء الكثير من سر وقوع الحوادث التاريخية واختلاف الهيآت الاجتماعية . وقد وضعت قواعد هذا العلم حوالي سنة ١٨٤٢ اي في منتصف القرن التاسع عشر وهو ان الحوادث الاجتماعية خاضعة لقوانين طبيعية مثل غيرها من الحوادث وان كان يعد ابن خلدون اول من بدأ التفكير الصحيح في الظواهر الاجتماعية . وسبق كونت بما يزيد على اربعة قرون في ذلك والذي يجب ان يعتبر الباحث الاول في هذا العلم .

(٧) بستالوزي johann heinrich pestalozzi

هو المربي والمفكر السويسري المشهور الذي يعتبر « صديق الشعب السويسري » لانه اسس مدرسة للفقراء من نفقاته الخاصة وبدأ يسير في التدريس على طريقة جديدة وبروح قومية اجتماعية عميقة حتى اصبحت مدرسته هذه نموذجاً حياً للعالم اجمع . وعنه اخذ اكثر العالم الاوربي طريقة التربية الحقة التي تعتني بجميع افراد الشعب لاسيما الفقراء منهم . ولا يزال بيته في مدينة زوريخ السويسرية قبلة لكافة علماء التربية في العالم الغربي .

(٨) ان هذا النشيد الالماني هو قطعة من الغناء الشعبي القديم الا انه استخدم حديثاً كنشيد قومي ، ولما استولى الحزب النازي على الحكم اضاف اليه المقطوعة الثانية التي اعتبرها مكملة للنشيد وهذه المقطوعة الجديدة من نظم احد الطلاب النازيين في جامعة برلين والذي اغتيل من قبل الشيوعيين واهم مقطوعات النشيد الالماني هي المقطوعة الاولى ، والمقطوعة التي اضافها النازيون :

المانيا المانيا فوق جميع الاشياء
وفوق كل شيء في الدنيا تحت السماء
انها تقف متحدة في هذه البقاع
اتحاد الأخوة في الذود والدفاع
من الماس الى الميمل ، ومن ايج الى البلت

رصوا الصفوف وارفعوا الاعلام
ولتسر فرق الصاعقة بخطاها الثابتة المتساوية الى الامام
ايها الرفاق الذين قتلهم الشيوعيون والرجعيون
رافقوا بروحكم ابطال صفوفنا وهم يسيرون

المانيا المانيا فوق جميع الاشياء
وفوق كل شيء تحت هذه السماء

والمهم في النشيد القومي هو نوع القدسية التي تعطى له حتى يفعل مفعوله في النفوس .

(٩) john locke

وهو مفكر انكليزي مشهور ومؤسس الفلسفة التجريبية في انكلترا ويعتبر مفتتح عصر النهضة الفكرية في اوربا وله آراء جديدة في التربية ، فهو الذي يعقد ان التربية هي العامل الفعال في تكوين الشخص، حتى قال بان نفس الطفل كالصفحة البيضاء التي يستطيع ان يكتب عليها المعلم او المربي ما يشاء . وكان يعتقد بان ٩٠ ٪ من اعمال الانسان هي نتيجة لمفعول التربية ، لذلك فقد ارار ان تكون التربية الانكليزية مساعدة لايجاد الفرد الانكليزي الذي يضع نصب عينه المصلحة العامة دوماً .

(١٠) ماركس Karl marx

وهو من اصل يهودي نشأ وترعرع في المانيا ودرس الحقوق والتاريخ والفلسفة ثم دخل الحزب الشيوعي مع صديقه انكل واصبح الاثنان من دعامات هذا الحزب الاساسية ونشرا منهاج الشيوعية وقاما بهجومهما العنيف ضد الرأسمالية ونظام الهيأة الاجتماعية ولذلك فقد طلب من العمال ان يتحدوا في العالم ويقضوا على الفكرة الرأسمالية وذلك بالثورة والعنف وهو الذي اوضح الشيوعية من الوجهة الاقتصادية بكتابه المشهور « الرأسمال »

(١١) هيكل georg Wilhem friedrich hegel

هو استاذ كارل ماكس ومن اشهر فلاسفة الالمان بل من اشهر فلاسفة القرن التاسع عشر . وقد كان استاذاً في جامعة بهنا عندما

حصلت معركة نابليون ضد بروسيا لذلك فقد تعمق هيكل في فلسفة التاريخ وله مؤلفات كثيرة تعد من اهم كتب الفلسفة وفلسفة التاريخ.

(١٢) ادم سمث Adam smith

وهو عالم انكليزي اختص في البحث الاجتماعي وعلم الاخلاق الا انه كتب اخيراً كتابه المشهورفي الاقتصاد والذي ضمنه نظريته الاقتصادية التي سادت مدارس اوربا الاقتصادية مدة طويلة من الزمن فاصبح يعتبر لذلك من اهم علماء الاقتصاد الذين يدافعون عن الحرية الاقتصادية التامة دون تقييد الحكومة او تداخل الدولة في ذلك . ولذلك فان انكلترا قد دافعت عن هذه النظرية لانه كان من مصلحتها تثبيت هذه النظرية الاقتصادية حيث ان انكلترا قد سبقت العالم بنشوء الصناعة وتكون الاسطول التجاري الذي يحمل البضائع ولذا فمصلحتها تقضي بان تكون التجارة حرة ، حتى تجد اسواقاً في اوربا وخارجها للبضائع التي تنتجها صناعتها ولشراء المواد الاولية لهذه الصناعة فكانت الحرية التجارية التي نادى بها سمث ودافع عنها هي من اهم العوامل في تثبيت الامبراطورية وتوسعها .

(١٣) بسمارك OttoVon Bismarck

هو السياسي الالماني المشهور الذي استطاع تحقيق الوحدة الالمانية والذي لقبه الالمان واكثر سياسيي العالم بالسياسي العبقري الذي ظهر في القرن التاسع عشر . وكان بسمارك قبل دخوله السلك السياسي من اعنف القوميين الالمان وقد اشترك في اكثر الثورات القومية لابل من قادتها الاول كما كان دوماً في الصفوف الامامية في القتال وفي مقدمة الثوار . ولما دخل السلك الدبلوماسي كان يعتبر اجرأ شخص

دخل هذا السلك فبهذه الجرأة المصحوبة بالحس القومي العميق والتفكير الواقعي استطاع ان يحقق للشعب الالماني حلمه اللذيذ وهو الوحدة الالمانية وتكوين الرايخ الالماني الثاني . اما بسمارك العرب فقد لقب بذلك المرحوم ياسين الهاشمي لما بين الشخصين من شبه في التفكير وفي المسلك .

(١٤) مولتكه – Helmut Graf von moltke

يعد من عبقري السلك العسكري في القرن التاسع عشر وقد كان الساعد الايمن لبسمارك في تنفيذ خطته السياسية بالقوة العسكرية وتولى لذلك رآسة الاركان في بروسيا عام ١٨٤٨ . وله تجارب عسكرية كثيرة فقد كان قبل ذلك مستشاراً للدولة العثمانية كما انه اشترك عمليا في حرب العثمانيين ضد المصريين ولذلك فمعلوماته العسكرية واسعة وتجاربه في الدفاع والهجوم معلومة وهو الذي قاد جيوش بروسيا في كافة الحروب التي رآها بسمارك ضرورية لتحقيق اهدافه القومية ونظرياته العسكرية اصبحت عالمية ومضرب المثل لكافة الجيوش وتدرس خططه العسكرية في اكثر كليات الاركان في العالم .

اما مولتكة العرب فقد وصف بذلك الفريق طه الهاشمي لما كان رئيساً لاركان الجيش العراقي الذي لقب ايضاً بجيش بروسيا العرب .

(١٥) لوودورف Eri ch ludendorpff

هو من اشهر اركان الجيش الالماني في الحرب العالمية الاولى وقد اخذ شهرة كبيرة في الحرب عندما ساهم في احتلال قلعة ليج ثم اصبح بعد ذلك رئيس هيئة اركان الجيش الثامن الذي وجه ضد روسيا بقيادة

المارشال هندنبرغ والذي نظم الخطة ضد الجيوش الروسية ونال النصر في المعركة التاريخية المشهورة . ثم اصبح المسؤول الاول في الجيش الالماني . وعند انتهاء الحرب اخذ يصدر مجلة يدافع فيها عن الشعب الالماني وينشر فيها آراءه القومية المتطرفة ولما اسس الحزب النازي في مونيخ بقيادة الجندي هتلر لم ير بأساً في الانضواء تحت لوائه والاشتراك معه في الثورة في مونيخ وقد كان يؤمن بان هتلر صالح لقيادة الشعب الالماني ـ الا انه اختلف مع هتلر بعد نمو الحزب النازي ولكن هذا الاختلاف لم يوجد القطعية الشخصية بين الاثنين وانما استمر ينشر آراءه السابقة حتى وفاته دون ان يحارب هتلر او يقف ضده كما ان هتلر ترك له الحرية التامة في نشر ما يريد بصراحة .

(١٦) الامير كارل karl

هو ابن القيصر ويلهم الثالث الذي خسر الحرب العالمية الاولى وذهب الى هولندة . وهو الولد الثاني للقيصر والذي التحق بالحركة النازية وانضم الى صفوف النازين مع انهم لم يعترفوا بعرش ابيه ولم يحملوا الشعار الذي كان يحمله ابوه ولم يرفعوا العلم الذي كان يرفرف على الدولة الالمانية ومع ذلك فقد كانت قوميته قوية تتناسى في سبيل تحقيقها كل اعتبارات عائلية واصبح فرداً من افراد الحزب يحي رئيسه بالتحية الحزبية ويقوم بكافة الواجبات التي يكلفه الحزب بادائها ، وقد شاهدته في برلين ببدلة الحزب البسيطة يحمل صندوق التبرعات ويجمع الدراهم من المارين وذلك لمساعدة الفقراء في الشتاء كبقية اعضاء الحزب الآخرين دون ان يرى في ذلك بأساً مادامت حياة امته تتطلب ذلك والحزب يأمره به .

(١٧) من الصعب ان يجد الشاب العربي اي كتاب مفصل عن القومية العربية وان كان هناك بعض الكتب والكراسات التي تبحث الموضوع اما بصورة عرضية او تقتصر على ناحية واحدة .

ومن الكتب التي استطعت الاطلاع عليها والتي تستحق العناية والدرس في هذا الموضوع هو كتاب الدكتور قسطنطين زريق ، عن الوعي القومي كما ان كتاب الاستاذ الحصري آراء واحاديث في الوطنية والقومية هو من خيرة الكتب التي يستفاد منها في هذه الناحية . وكذلك كراسة (الدمقراطية والاشتراكية والقومية) للدكتور عبد المجيد عباس مهبة لمن يريد البحث في القومية .

(١٨) المغرب العربي هو الساحل الطويل الممتد من حدود مصر حتى المحيط الاطلسي وهو يشمل الاقطار الاربعة التالية : طرابلس الغرب ، تونس ، الجزائر ، مراكش (المنطقة الخلفية ، ومنطقة السلطان ومدينة طنجة الحرة) وهذا الساحل يمتاز عن الضفة الاخرى من البحر الابيض المتوسط بانفساح اراضيه وفصله عن الصحراء بجبال عالية تؤثر في اعتدال مناخه وتزيد في خصب ارضه رغم قلة المياه وفقدان الانهر الكبيرة . ومركزه السوقي (الستراتيجي) ممتاز بالنسبة للبحر الابيض المتوسط . كما انه يحتوي على كافة المعادن الضرورية للصناعة .

الا انه رغم خصبه وكثرة مزروعاته فقد انتشرت فيه موجة من المجاعة قاسية ، وذلك بفضل الاستعمار الذي حمل الغلة الى فرنسا وايطاليا واحدث الخلل في الادارة ، ونزلت هذه المجاعة بصورة خاصة بالقسم الشرقي منه اي في تونس وطرابلس . وقد عاجلت بعض الدول العربية لمد يد المعونة له بارسال ما هو ضروري من المواد الغذائية وتبرعت كذلك

بمبلغ من المال . وكانت نتيجة ذلك ان رفضت فرانسا وانكلترا السماح للباخرة المصرية التي كانت تحمل الغذاء من ان ترسو في احدى موانيء المغرب لتوزع المعونة الغذائية على الشعب العربي الجائع ، وفشلت كل المحاولات في اقناع فرانسا على قبول هذا العمل الانساني ونظراً لتعنت الدول المستعمرة في المغرب العربي لم يحصل المغرب على شيء من هذه المساعدة الضئيلة . وقد سكتت اكثر الدول العربية عن الاستمرار في المطالبة والاحتجاج لدى الدوائر العالمية المسؤولة ، ولذا فقد بقي ماتبرعت به بعض الدول العربية في صندوقها او حبراً على ورق اذ لم تستلم هيئآت المغرب شيئاً زهيداً من هذه الدراهم التي اعلنت بعض الدول العربية انها تبرعت بها ، بينما كانت هذه الهيئات التي نزحت الى خارج المغرب بحاجة ماسة الى جزء من هذه التبرعات .

(١٩) ان بعض العرب الذين يدرسون في معاهد الغرب يقبلون بعض اراء العلماء الذين يحملون الفكرة الاستعمارية فيعتقدون ان هناك صعوبة كبيرة في توحيد البلاد العربية المترامية الاطراف وتكوين حكومة مركزية واحدة لها لذلك يبدأ النزاع بين الشبان العرب حالاً عن كيفية تكوين هذه الوحدة ونوعها ويزيد الجدل بينهم عن ما هو الافضل الوحدة ام الاتحاد وقد نسوا ان الدول لا تتقيد كثيراً بمساحة الاراضي ولا بعدد السكان لان ذلك ثانوي بالنسبة للعوامل الاخرى المكونة للامم والتاريخ مملوء بالدول التي كانت اكبر سعة من البلاد العربية الحالية وكانت تضم عناصر مختلفة لاعنصراً واحداً فالرومان والعرب وحتى الفرس كانت لهم امبراطوريات اوسع رقعة من هذا الوطن ومع ذلك فقد دامت امبراطورياتهم زمناً طويلاً .

اما في الوقت الحاضر فهـا ان الامبراطورية الانكليزية والولايات المتحدة وروسيا والصين تكون امبراطوريات ذات اراضي اوسع بكثير من الوطن العربي واكثر سكانا من نفوس الامة العربية ومع ذلك لهـا دول مركزية . فمساحة الصين مثلاً تقدر باكثر من عشرة ملايين كم٢ وفيها ما يقرب من ٥٠٠ مليون نفس اما مساحة روسيا فتزيد على ٢٢ مليوناً من الكيلو مترات المربعة ونفوسها تزيدعلى ١٨٠ مليوناًوكلا الدولتين تضم عـــدداً كبيراً من الشعوب المختلفة في لغاتها ودياناتها ومستواها الثقافي والاجتماعي ومعذلك فالدولتان من الدول الخمس الكبرى بينما لا تزيد مساحة البلاد العربية بما فيها الصحراء الكبرى والصحراء العربيه التابعة لها عن تسعة ملايين كم٢ ونفوسها تبلـغ ٦٥ مليوناً منسجين في اللغة والعاداد والثقافة والتاريخ وحتى في الديانة .

(٢٢) لقد ظهرت نية الحلفاء السيئة منذ نشرت الحكومة الروسية بعد الثورة الشيوعية فيها وطرد القياصرة ، لنصوص معاهدت سايكس ـ بيكو ـ التي عقدت بين فرانسا وانكلترا لاقتسام البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية . فبينما تعهدت انكلترا للعرب بالاستقلال والوحدة اذ بها تتفق مع فرانسا بعد قليل او في نفس الوقت على تقسيم هـذه البلاد الى مناطق تكون تابعة لهاتين الدولتين او خاضعة لنفوذهما المباشر ورغم ظهور هذه النية بوضوح لم يستطع العرب تغيير موقفهم من الحلفاء وانما بقوا سائرين في معاونتهم لهم راجين الله ان يكذب ما سمعت آذانهم ورأت عيونهم فكانت النتيجة المؤلمـة وهي خيبة الامل وتمزيق البلاد العربية الى وديلات ومناطق نفوذ واصبحت الامـة تعاني آلام هـذه التقسيم وقيام الحواجز الكثيرة بين اجزائها .

(٢٣) من الشروط الاساسية لكل سياسي ان يعرف البلد الذي يعد نفسه مسؤولا عن ارادة سياسته او عن البحث في مشاكله بصورة جدية ، وها اننا لو استعرضنا رجال السياسة في البلاد العربية منذ ربع قرن حتى اليوم لم نر الا ما ندر من فكرمنهم بزيارة المغرب العربي سواء كانت الزيارة رسمية ام خصوصية ، مع ان البعض منهم يستطيع ذلك بشتى الوسائل فلو كان الاهتمام بالمغرب من قبل رجال السياسة في البلاد العربية موجوداً لقام بعضهم بهذه الخطوة الاولى على الاقل حتى يكون حكمهم صحيحاً ورأيهم معتمداً على الواقع العملي ولاستطاعوا عند ذاك ان يستفيدوا من المغرب لانه قوي ولا يحتاج الا الى استغلال هذه القوة وتنظيمها وضمها للمجموعة العربية .

(٢٤) لقد ماطلتنا الحكومة الايطالية في اعطاء سمة الدخول الى طرابلس ، حتى ان المفوضية الايطالية في برلين اعطتنا سمة الدخول الى ايطاليا فقط وقالت انها ستكتب لمفوضيتها في فينا لتسلمنا السمة لطرابلس من هناك لان ذلك يتطلب موافقة الحكومة المركزية في روما . ولما وصلنا فينا كان الجواب سلبياً طبعاً وقالوا سوف تأخذوها من روما وعند وصولنا الى روما رفضت الحكومة الايطالية ذلك بحجة ان ذلك من اختصاص مفوضيتها في برلين التي اعطتنا السمة الايطالية ولما رأت الحاحنا ماطلتنا الخارجية الايطالية وقالت سوف تعطى لكم في نابلي - وفي نابلي ترددت الحكومة وقالت سوف تعطى لكم في بالرمور عاصمة صقلية ، واخيراً لم نستلم السمة الا بعد ان باتت لنا المباني العربية في مدينة طرابلس - وفي كل مرة نراجع فيها الدوائر الرسمية ننصح من قبل الموظفين بان نكف عن زيارة طرابلس ونكتفي بالتجول في داخل

ايطاليا . مثل هذه العراقيل توضع لكل من يريد زيارة طرابلس وحتى لو كان من حلفائهم واصدقائهم لانهم لايرغبون في تشجيع السفر الى طرابلس الغرب حتى لايطلع احد عما يجري في هذه البلاد من فضائح استعمارية .

(٢٥) لا يوجد احصاء مضبوط لنفوس طرابلس الغرب وانما كل ما هنالك تخمينات تبتعد عن الحقيقة بمقدار غرض المخمن نفسه . الا ان من رأى معاملة الطليان التي تقضي بافناء العنصر العربي يعتقد حتماً ان النفوس قد تناقصت الى النصف او اكثر في حين ان اكثر بلاد العالم قد زادت نفوسها بعد الحرب العالمية الاولى وذلك لارتفاع مستوى المعيشة وتحسن الوسائل الصحية . وحتى البلاد العربية رغم ابتلائها بالاستعمار قد سجلت زيادات مختلفة في النفوس الا طرابلس الغرب فهي في حالة تناقص مستمر ما دام الطليان يسيطرون على امورها . وليس ذلك عجباً لان الشبان الذين هم في سن الزواج لا يقدمون على ذلك لانهم لا يعرفون في اي لحظة يساقون فيها الى السجن الذي لا يعرف احد مدته ولا مقدار قسوته ، كما حدثنا احد الشبان . اما البدو والعشار فهي في حالة ملاحقة مستمرة من قبل رجال الحكومة الايطالية ليخلو الجو للعائلات الايطالية التي تبحر كل سنة وتحط رحالها في طرابلس وتستوطنها كأنها صاحبة الارض منذ آلاف السنين . وما تعلنه الحكومة الايطالية من زيادة السكان في طرابلس فانما هو نتيجة للولادات الايطالية ولكثرة النازحين من الطليان اليها .

(٢٦) لقد دعانا مفتي مدينة طرابلس الغرب الى وليمة عشاء

بعد ان انتشر خبر قدومنا في البلدة وقام لنا الشباب الواعي بواجب الضيافة العربية وقد قبلنا الدعوة شاكرين لاننا كنا نرغب معرفة سر منح موسوليني السيف ، ولقب حامي الاسلام مع ان العرب في طرابلس صرحوا لنا انهم لم يجدوا حكومة ايطالية تسير بسياسة افناء لهم مثل حكومة موسوليني ولا شخصاً ظالماً جرثياً مثل بالبو صديق موسوليني وحاكم طرابلس الغرب المطلق . ولما خلا الجو صارحناه برأينا وألم الامة العربية لهذه العملية التي يندى لها جبين كل طرابلسي بالدرجة الاولى وكل عربي مسلم بالدرجة الثانية ومهما كانت الاعذار فان مثل هذا العمل سوف لا تغفره الامة العربية ولا تسكت عليه لانه اهانة قومية واستهتار ديني فضيع .

(٢٧) بدأت الحركة السياسية في تونس بعد ان خمدت جميع الثورات التي قامت بها البلاد التونسية ضد فرانسا المستعمرة والتي دامت منذ احتلالها ١٨٨١ حتى ١٩٠٤ . وقبيل الحرب عاد بعض الشبان التونسيين مكملين دراستهم في باريس الى تونس فبدأوا فيها نشاطهم السياسي وكفاحهم القومي . وقد اوجدوا ثورة ١٩١٦ – ١٩١٨ اشترك فيها عبد الرحمن عزام باشا – الامين العام الحالي لجامعة الدول العربية وانتهز المرحوم الثعالبي انتهاء الحرب فقدم مذكرة الى مؤتمر الصلح في باريس الى الوئيس ويلسن يطالب فيها باستقلال تونس واعطائها النظام الدستوري وضمان الحرية العامة فيها ، فالقت الحكومة الافرنسية القبض عليه وسجنته ستة اشهر ولما خرج من السجن تأسس الحزب الدستوري وذلك سنة ١٩١٩ ويتضمن ميثاقه المطالبة بتأسيس برلمان تونسي وحكومة مسؤولة امامه . فأبعدت فرانسا المرحوم الثعالبي لانها شعرت بخطره

على سياستها . الا ان الشباب بقي مثابراً على الكفاح والتعلق بميثاق الحزب حتى ١٩٣٤ اذ تأسس الحزب الدستوري الجديد برئاسة الحبيب ابو رقيبة . ومنهاجه السياسي لايختلف عن المنهج القديم الا ان خطة العمل قد تغيرت بالنسبة للظرف الزمني وبالنسبة للاجيال التي تقوم بالعمل لان العمل المشترك بين الجيلين اصبح صعباً جداً لاختلاف كبير في العقليتين . وهذا الحزب الجديد هو الذي قام بالحركة العنيفة ضد الاستعمار الافرنسي ١٩٣٨ وقتل نتيجة لذلك عدد كبير من خيرة الشباب كما سبق عدد كبير من الشباب والشابات الى السجون في تونس وساهمت الزيتونه والصادقية بنصيب وافر من الحركة وفي تقديم الضحايا والمساجين .

(٢٨) انتهز المرحوم الثعالبي فرصة نفيه الى خارج تونس فسافر الى مصر ملتقى رجالات العرب والمطاردين من قبل حكوماتهم او المستعمرين ثم سافر الى بغداد واتصل بفيصل ورجالات العراق فيها ونال منزلة لائقة فيها وقد سافر الى المملكة العربية السعودية والهند واخذ يبدي نشاطاً كبيراً في تعريف تونس بصورة خاصة والمغرب العربي بصورة عامة الى البلاد العربية في القسم الشرقي . وكان المرحوم الثعالبي من العلماء الضليعين في العربية والتاريخ الاسلامي لذلك فقد استفادت منه المعاهد العلمية في القسم الشرقي العربي كما لعب دوراً طيباً كوسيط بين المغرب العربي والمشرق العربي واخيراً عفت عنه فرانسا وعاد الى تونس فرأى بلده قد تغير كثيراً نظراً لطول فترة الغربة والانقلابات العالمية المهمة وبقي في تونس حتى توفي وسط الحرب العالمية الثانية .

(٢٩) من ابشع الاعمال التي يشاهدها المسافر في الاندلس هي

مسخ الجامع الكبير في غرناطه وتحويله الى كنيسة اذ تصبح بشاعة البناء شاهداً عدلا على سوء التصرف وانحطاط الآمر ، وهذا ماشاهدناه ايضاً في بـــلاد الجزائر فان اجمل جوامع وهران الذي عمر باموال المسلمين اخذ من قبل السلطة الافرنسية وسلم الى احدى بعثات التبشير فقلبته الى كنيسة فما ابشع ما يرى الانسان بجنب منصة الخطيب المحراب الجميل الذي مسخ مسخاً لازالة طابعه الاسلامي وهناك جوامع اخرى في مدينة الجزائر كان نصيبها نصيب جامع وهران الجميل . اما المدارس التي تبنى لتدريس ابناء الشعب مبادىء اللغة العربيـة والدين الاسلامي فان الحكومة الافرنسية تترك الناس يجمعون الاموال ويقيمون البناء فما يكاد يتم حتى تظهر لهم الحكومة حجة ما ـ وما اكثر الحجج عند المستعمرين ـ ثم تقفل المدرسة وبعد مـــدة تستخدمها لمصالح خاصة . وهـذا ماشاهدناه في تلمسان اذ صرفت جمعية العلماء اكـثر من نصف مليون على البناء لم تسمح الحكومة باستعماله لغاية تعليمية بحجة ان المدرسة ستكون عاملا فعالا في الاضطراب وعدم الهدوء في البلاد .

(٣٠) لقد بدأت الحركة السياسية من قبل الزعيم الجزائري احمد مصالحي الحاج في باريس وفي اوساط العمال لان في فرانسا عدد كبير من العمال الجزائرين كما ذكرنا قبلا فقام الحاج المصالحي بتنظيم حركة تحت اسم (نجم شمالي افريقيا) وسار في تنظيم حزبـه على الطريقة الاوربية ولكن بروح عربية ونمت الحركة وتوسعت بسرعة حتى خشيتها فرانسا واصبحت تراقب رئيسها بحذر شديد ولما قـــدم الجزائر اسس الحاج المصالي حزب الشعب الجزائري ، ونشر مقررات الحزب سنة ١٩٣٧ والتي اهمها استقلال الجزائر العربية ، لذلك فقد فقدت فرانسا

صوابها وحلت الحزب واعتقلت الزعيم المصالي ورفاقه وبقي في سجون فرانسا المعروفة بقسوتها وسوء معاملتها حتى ١٩٤٣ فعاد المصالي الى متابعة الحركة بعد خروجه من السجن فالقى عليه القبض ثانية وابعد الى جنوب افريقيا حتى سنة سنة ١٩٤٦ ولكن اطلق سراحه نظراً لضغط الشعب الجزائري الشديد على فرانسا وما يزال يعمل المصالي في الحقل السياسي الوطني ويتعاون مع زعماء اقطار المغرب العربي وبقية رجالات العرب .

(٣١) اول معاهدة عقدتها فرانسا مع مراكش كانت في سنة ١٧٦٧ وهي معاهدة تجارية وبذلك بدأت خطتها الاستعمارية في هذا القطر العربي وفي ١٨١٠ بدأت فرانسا توثق علاقاتها بمراكش اكثر من ذي قبل حيث ارسل سلطان مراكش سفيراً الى بلاط نابليون الاول (بونوبارت) وهو السفير الوحيد لمراكش في اوربا ثم استمرت العلاقات تتوسع وتأخذ طابعاً خاصاً حتى اعلن في المجلس الافرنسي ١٩٠٣ ان فرانسا لها الكلمة الحاسمة في مراكش . ولذلك فقد بدأ النزاع حول مراكش سنة ١٩٠٤ واستمر النزاع الى سنة ١٩١١ حيث حصرت فرانسا علاقات مراكش بها وحدها بعد ان سويت قضية مراكش بواسطة مؤتمر الجزيرة وانتهت مشاكلها مع المانيا سلمياً .

(٣٢) لعبت المانيا دوراً مهماً في تأخير احتلال فرانسا لمراكش لا سيما بعد ان وافقت انكلترا ١٩٠٤ على خطة فرانسا الاستعمارية فقد بقيت المانيا معارضة لمشروع فرانسا في احتلال مراكش ، ولذلك فكانت المانيا هي العامل الوحيد في تأخير استعمار هذا القطر . ولما شعرت فرانسا بمضايقة المانيا لها وبانها لم تستطع اقناعها بدأت تفاوضها على اساس

تعويض معين فتوسطت انكلترا في الامر . واخيراً تنازلت عن معارضة خطة فرانسا في مراكش سنة ١٩١١ بعد ان تنازلت فرانسا لالمانيا عن ٢٨٠٠٠٠ كم٢ ، من الكنغو الافرنسية لالمانيا ولذلك فقد اصبحت فرانسا طليقة اليد في مراكش ونفضت كل الدول يدها عن مساعدة مراكش وسلمت هذه البلاد طعمة سائغة للاستعمار الافرنسي الجشع .

(٣٣) لعبت الهند الدور الاول في توجيه السياسة الانكليزية الاستعمارية وقد وصفت الهند بانها الدرة الرئيسية في التاج البريطاني نظراً للثروة الكبيرة التي تدرها هذه البلاد على الجزر البريطانية ، لذلك اعتبرت مراكش لفرانسا كالهند بالنسبة لبريطانيا حيث انها تدر ثروة كبيرة وتجهزها بالفرق العسكرية ، ولذلك فوضعية مراكش تؤثر كثيراً على سير السياسة الافرنسية ، كما تؤثر الهند على سير السياسة البريطانية .

(٣٤) بدأت الحركة السياسية الجديدة في مراكش بعد صدور الظهير البربري ١٩٣٠ الذي يقضي بفصل خمسة ملايين من العرب في مراكش باسم البربر عن بقية المواطنين فتكونت على اثر ذلك كتلة العمل الوطني برآسة الزعيم المراكشي علال الفاسي سنة ١٩٣٢ . وفي سنة ١٩٣٦ عقدت مؤتمراً في الدار البيضاء فمنعت السلطة الافرنسية الاجتماع بالقوة واعتقلت كافة القادة ولكن افرج عنهم لضغط شعبي شديد ثم اعتقل الزعماء ثانية لنشاطهم السياسي ونفى الرئيس علال الفاسي الى اواسط افريقيا سنة ١٩٣٧ قضي فيها عشر سنوات . اما بقية القادة فكانوا يعانون آلام السجن وقسوته . اما الآن فقد عاد الفاسي الى الكفاح ثانية وانظم الى صفوف السلطان الذي ايد الحركة ورعاها بعطفه . واصبح الحزب السياسي الجديد الذي انبثق عن الاول هو حزب الاستقلال والذي وحد جميع الهيآت الوطنية .

(٣٥) عندما قام الامير عبد الكريم الخطابي بثورته ضد الحكومة الاسبانية بدأت فرانسا تهزأ من ذلك وتفرح لان الثورة وقعت في الاراضي التي تحكمها اسبانيا ، الا انه ما كادت تبدأ الثورة حتى بدأ خطرها على الحكم الاوربي في هذا القسم العربي يظهر جلياً لان عبد الكريم استطاع تنظيم الثورة بقوة وحزم وهذا سر قوتها فكل الحركات العربية التي طبعت بطابع التنظيم اعطت احسن الثمار . لذلك فقد رأت فرانسا نفسها مضطرة لمعاونة اسبانيا حتى لا يمتد الخطر الى منطقة نفوذها في مراكش فقاومت الامير عبد الكريم ولما لم ير بداً من التسليم اخذته فرانسا ونفته الى خارج بلاده الا ان الحركة التحريرية في الريف لم يقض عليها بل بدأت ثانية بشكل سياسي برآسة عبد الخالق الطريس الذي اسس حزب الاصلاح في تطوان وبدأ عمله في صفوف الشباب القومي والهيآت الشعبية وقد كان سنداً لكل حركة وطنية في المغرب العربي ، ونال عطف خليفة السلطان ايضاً لذلك فهو يقدم خدمة كبرى الى الوحدة المراكشية ويبذل جهوداً في سبيل الوحدة العربية العامة وقد زار الشرق العربي عدة مرات ونال اعجاب كل من تعرف عليه .

(٣٦) اقيمت هذه الحفلة في النادي العربي بمناسبة ذكرى احتلال الجزائر وقد اقتسم الخطباء مواضيع البحث حتى لا يطرق موضوع واحد من قبل خطيبين ، فتكلم الدكتور صبحي ابو غنيمة عن واجب العرب تجاه المغرب والسيد منير الريس عن مآسي المغرب وقسوة الاستعمار وكان نصيبي ان اقول كلمة حول ثورة المغرب وهي هذه ، اما السيد يوسف الرويسي سكرتير حزب الحر الدستوري ، ومن ابرز اعضائه وقادته فتكلم عن كفاح المغرب العربي وللاستاذ يوسف الرويسي الفضل الاول في اقامة الحفلة وفي انعاش الحركة المغربية في هذه البلاد اليوم .

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	١٢	ماكس	ماركس
١٤	٩	باروبا	باوربا
١٧	٥	الامثل	الامثال
١٧	٧	بين بين	بين
٢٠	١٢	ندائه	نداءه
٢٤	١٢	تحمل	يحمل
٣١	١٧	الثالثة	الرابعة
٣٥	٢	الاحمز	الاحمر
٣٧	١٤	في العلم	من العلم
٤٠	١٢	لحظة	لحظته
٤٠	١٦	يشترك	يشرك
٤٢	٦	٢٢ ٢٠ لكن سار الكتاب على التسلسل	
٣٣	١٢	هذا التباعد من فترة	من فترة هذا التباعد
٤٤	١٦	هون	دون
٤٦	٧	سلميه	سليمة
٤٦	١٠	إتطاعوا	استطاعوا
٥١		والحطة ليس وضع	والخطر ليس في وضع
٥٢	٢	اذ	و
٥٢	١٣	مستمد	مستمدة
٥٥	١٥	مقلوبة	الايطالية
٥٥	١٦	ضجة	ضحية
٥٨	٥	فهذا	فهو
٦٣	٦	مهيمنين	مهمين
٨٠	٥	تخرخ	تخرج
٨٢	٩	لم تجري	لم تجر في
٨٧	١٧	ساوس	وسوس
٩٢	٧	الذينية	الدينية
١٠٣	٦	ادئها	ادائها
١٠٤	٩	للتنظيما	للتنظيم
١٠٩	١٥	الحديثة	الجدية
١١٥	٨	القطعية	القطيعة

الفهرست

صفحة

٣ **نظرات فى القومية العربية**
(القيت في قاعة النادي العربي)

٣٤ **المغرب العربى**
(القيت في النادي القومي)

٦٩ **ثروة المغرب**
(القيت في قاعة النادي العربي بمناسبة ذكرى احتلال الجزائر)

٧٨ **العراق والجامعة العربية**
(القيت في المعهد العربي بمناسبة الاحتفال بمرور عامين على انشاء جامعة الدول العربية)

٨٩ **القضية العربية فى التاريخ الحديث**
(وهي الحلقة الثانية لسلسلة محاضرات القيت في دار الاذاعة بدمشق)

٩٨ **محمد مبدع القومية العربية**
(القيت في قاعة النادي العربي بمناسبة الاحتفال بمولد الرسول محمد « ص »)

١٠٨ **ذيل**

A. U. B. LIBRARY

DATE DUE

A.U.B. LIBRARY

320.54:U48hA:c.1
العمر ،جابر
حول القومية العربية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01014076

320.54:U48hA
العمر
حول القومية العربية.

DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number

320.54
U48hA